15me Année No. 712

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

Lundi — 24 — 2 — 1947

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٧١٢ «القاهرة فى يوم الاثنين ٣ ربيع الثانى سنة ١٣٦٦ — ٢٤ فبراير سنة ١٩٤٧» السنة الخامسة عشرة

إن هذا العـــلم دين

فانظروا عمن تأخذون دينكم

للأســـتاذ على الطنطاوى

أنا لم أتشرف بالانتساب إلى الأزهر ولا إلى غيره من المعاهد الشرعية ، لأنى تعلمت فى المدارس الأميرية من دار الحضانة إلى كلية الحقوق ، ولكنى نشأت من صغرى بين كتب العربية والدين ، وربيت فى مجالس العلم والأدب ، لأن والدى رحمه الله كان من كبار علماء دمشق ، وكانت دارنا من الدور العريقة فى العلم ، فلم تكن تخلو يوماً من مراجعات أو مناقشات ، ونظر الكتب ومقارعات بالحجج ، ومن عامة يستفتون وطلبة يقرأون وعلماء يبحثون ، فلما توفى والدى لزمت عالماً أزهرياً متفنناً ، فكنت أنصرف من المدرسة فأراجع دروسها على عجل ، ثم أتعشى (وكان العشاء فى تلك الأيام بعد العصر) وأصلى المغرب وأمضى إليه فى مسجده ، فأقعد مع الطلبة ننتظره حتى يفرغ من صلاته ، وكنا نحو الخمسين طالباً ، منا تلميذ المدرسة ومنا التاجر ومنا الموظف ، ومنا الشاب ومنا الكهل . وما يبتغى أحد منا بالعلم دنيا ، ما نبتغى إلا العلم وحده لنعرف به الحلال من الحرام ، نرى طلبه علينا فرضاً ، وتحصيله عبادة ، فكنا نجد فى المطالعة لذة ، وفى الحفظ مسرة ، وفى التعب راحة ، فنطالع الدرس قبل أن نقرأه ، ونطالعه بعد أن نقرأه ، ونحقق مسائله ونحفظ شواهده ، ونفتش عن الشروح له والحواشى عليه ...

فإذا قضى الشيخ صلاته أقبل علينا فسلّم فرددنا عليه السلام ، لا نقوم له لأنه أدبنا بأدب الإسلام ، وليس منه هذا القيام ، ولكن تثب لمقدمه قلوبنا ، وتخشع لحضره جوارحنا ، وتنبض بحبه وإجلاله كل ذرّة فينا ، فيقعد ونحن من حوله ، فيسمى الله ويحمده ويشرع فى درس النحو ، فيقرأ المعيد ويشرح هو ، ويقيم أحدنا إلى لوح أسود كالذى يكون فى المدارس ، فيملى عليه الشاهد ليوضح عليه القاعدة الجديدة ويذكر بالقواعد القديمة ، وكأن أحب شىء إليه أن نستعيده ونستوضحه ونناقشه ، فيعيد ويوضح ويجيب باسم الثغر ، طلق المحيا ، مشرق الشيبة محبوباً مهيباً . فيملك بخلقه قلوبنا ، وبعلمه عقولنا ، ثم يختم الدرس بحمد الله كما بدأه بحمد الله ، ويؤذن المؤذن فنقوم إلى الصلاة ، فنرى السكينة قد حفّت المجلس ، والرحمة قد نزلت عليه ، ونحس بالملائكة قد حضرته ، ويؤمنا الشيخ فيقرأ قراءة إخال من روعتها كأن القرآن قد هبط به الوحى آنفاً ، ولقد سمعت قراء أحلى صوتاً ، وأصح نغماً ، فما سمعت مثلها أبداً . فإذا قضيت الصلاة قعدنا نذكر الله بقلوب حاضرة ، وألسنة رطبة ، وجوارح خاشعة ، ثم من شاء منا قبل يد الشيخ (ولا يكاد يسمح بتقبيلها) وانصرف ، ومن شاء بقى يستمع إلى حديث الشيخ ،

وكان حديثه أعذب فى آذاننا من همسات الحب ، وأشجى من عبقريات الأغانى ، ثم ينظر الشيخ فيقول : إن فلاناً لم يحضر وقد بلغنى أنه مريض ، فعودوه وساعدوه . فنسرع إليه نعوده ونؤنسه ونأتيه بالطبيب وبالدواء . وإن فلاناً فى ضيق فأعينوه ، فنسد خلته ونفرج ضيقته . وربما استبق الواحد منا ، فانفرد به فنصحه ووعظه ، أو أنّبه على زىّ لا يليق بطالب العلم اتخذه . أو حل لا يحسن به حلّه ، أو صاحب لا يدله على الله صاحبه ، فيبلغ منا تأنيبه ما لا يبلغه السيف ، وندع ما كرهه ولا نعود إليه ، ثم ننصرف جميعاً إلى بيوتنا : الكبار إلى زوجاتهم وأولادهم والصغار إلى أمهاتهم وأخواتهم ، ننام من أذان العشاء على فرش التوبة والاستغفار ، ثم نقوم فى بواكر الأسحار ، عند ما يفيق الديك والمؤذن والنور ، فنتوضأ فنطهر بالماء أجسادنا ، ونصلى فنطهر بالصلاة أرواحنا ، ثم نمضى إلى المسجد فنؤدى الغداة مع الجماعة ، ثم نجلس فى حلقة الشيخ ، لنقرأ عليه الفقه والحديث والتفسير فى الصباح ، كما قرأنا النحو أولا والبلاغة ثانياً فى المساء وكما يقرأ عليه غيرنا غير هذا وذاك النهار كله ، فلا تلقى فى حياة الشيخ إلا العلم والدرس ، والمراجعة والبحث ، تتخللها مواعظه العامة ، وتوجيهاته الناس ، فهو المرجع فى كل شىء : فى الانتخابات العامة يسألونه فيأمرهم بأهل الدين والورع من أى حزب كانوا ، وفى الخصومات يرفعونها إليه ، فيزيلها بالصلح ، أو يفصلها بالحق وفى الأحداث كلها يبين فيها حكم الله . وكان كل نائب أو وزير يؤم داره خاشعاً متواضعاً كأنه يمشى إلى حرم ، فيريه عزة العلم ، وجلال الحق ، ولطف المؤمن ، وتواضع العظيم ، ويعظه ويأمره وينهاه ، ولا يرزؤه شيئاً من دنياه . وكان أيام الثورات على الفرنسيين هو الداعى إلى الجهاد ، وهو قائد القواد ، أرهبه الفرنسيون فلم يخف ، ورغبوه فلم يطمع ، وأزعجوه فما لان ، فتركوه لم يجرؤوا عليه ودونه أهل البلد يفدونه بأنفسهم وأهليهم .

أما الدنيا فلم يكن يسأل عنها أقبلت أو أدبرت ، ولم يكن يفكر فيها ضاقت أواتسعت ، فإن حضره الطعام حلالا أكل ، وإن دعاه محب أو فقير أجاب ، وإن أهدى إليه قبل ، فان كانت الدعوة أو الهدية من فاسق أو متكبر أبى . يلبس ما وجد فربما كانت عليه الجبة من الجوخ الثمين فمر به فقير مقرور فدفعها إليه ، ولبس عباءة مرقعة ، أو خرج بالإزار وحده . تدخل الدنيا داره فيكون كأنعم الناس ، ويدخل المال كيسه فيكون كأغنى الناس ثم يضيق ويفتقر ، فيتنكر ويقصد القرى فيشتغل فيها بالطين واللبن ، ويعود بما كسبه من كدّ يده ، لا يطغى فى الأولى ولا يقنط فى الثانية ، ولايذيق قلبه حلاوة الدنيا ، فيلين لأبنائها حرصاً عليها ، وخوفاً من زوالها .

وكنا نخرج معه كل ثلاثاء (وهو يوم الراحة عند العلماء) إلى القرى والأرباض ، فإذا جاوزنا رحبة دمشق ، قال : قد وضعنا المشيخة هنا ، ونحن من الآن إخوان . فنمازحه ويمازحنا ونغنى أمامه ونثب ونلعب ، ونسبح ونركب الخيل ونصطاد ، وكان يرغبنا فى السباحة والفروسية والرمى ، وسائر أنواع الرياضة ، لأن ذلك من سنة الإسلام ، ويود أن يكون معنا فيه ولكن السن تمنعه والضعف والكبر ، ثم نعود من الغد إلى الدرس ، ونحن أصفى الناس ذهناً ، وأطيبهم نفساً ، وأشدهم نشاطاً .

***

ولازمت من بعده مشايخ كثيرين كانت حالهم كحال الشيخ أو قريباً منها ، وكانت حياتهم علماً وعملا ، ومنطقاً وخلقاً ، وكانوا كلهم يحدثوننا عن الأزهر ومافيه ، حتى حبّب إلينا الأزهر القديم من أحاديثهم ، وتخيلناه جنة الروح ، ونعيم القلب ، وتوهمنا أن ما رأيناه من أحوال مشايخنا وردة من تلك الجنة ، وطرفا من ذلك النعيم ، وبتنا نتشوق إلى الأزهر ، ونتمنى أن نزور مصر لنراه ، فلما قدمت مصر سنة ١٩٢٨ رأيت الأزهر قد تغير عما وصفوه لنا ، وحال عن حاله التى حدثونا عنها ، فتركته ودخلت دار العلوم العليا . ثم لما عدت سنة ١٩٤٥ ، لم أجد الأزهر وإنما وجدت مسجداً خالياً ، وكليات تنتسب إليه ليست إلا مدارس كما عرفنا من المدارس ، فبكيته لما فقدته ، وحننت إليه ، لا إلى سراج الزيت ، وحصير الرواق ، بل إلى ذاك التقى وتلك الأخلاق . بكيت فيه شيخى ، وبكيت فيه عهد الشيخ الذى مضى عليه اليوم أكثر من ربع قرن ، ولا تزال ذكراه غذاء لروحى ، وفرحة لقلبى ، وأنساً لى فى وحشة الحياة ، أفكر فيه كما يفكر العاشق المهجور فى ليالى الوصال ، والسجين فى أيام الحرية ، والفلس فى زمان الغنى ، بل إنه لأحب إلىّ من عهود

الحب ، وليالي الوصال ، لأنها لذة الهوى وهو حلاوة الإيمان ، ولأن ذكراه ذخرى الذى لا يفنى ، ومفزعى كلما دهمتنى خطوب هذه الحياة المادية التى تختنق فيها الروح ، ومعين اليقين لى فى وادى الشكوك .

***

رحمة الله على أولئك المشايخ الذين كانوا ينابيع العلم ، ومنارات الهدى ، وأئمة الخير . وما كل المشايخ الأولين كانت لهم هذه الخلال ، وما كل علماء اليوم تجردوا عنها ، ولكن الأعمال بالنيات ، والأمور بالمقاصد ، وأولئك كانوا يقصدون العلم والدين ، فكان الأصل أن يكونوا أهل علم ودين إلا من شذ منهم ، والكمال لله وحده ، وهؤلاء الطلاب يقصدون الشهادة والمنصب فكان الأصل أن يكونوا أصحاب منصب وشهادة إلا من شذ منهم ، والخير لا ينقطع فى هذه الأمة إلى يوم القيامة .

وما أنا بالمحامى عن عهد بذاته ، ولا عن أشخاص بأعيانهم ، لكنما أدافع عن تقوى العالم وأمانة العلم ، والعلم إذا لم يكن معه أمانة كان الجهل خيراً منه ، كالطبيب الفاجر ، يغشّ المريض ويماطل فى العلاج ، ابتغاء دوام الحاجة إليه ، وتدفق المال عليه ، بل ربما بالغ فى الفجور فلم يمنعه علمه إن لم يكن أميناً أن يقتل المريض بالسم ، بدلا من شفائه بالدواء .

***

وخلاصة القول أن نبينا صلى الله عليه وسلم علمنا أن هذا العلم دين ، وأمرنا أن ننظر عمّن نأخذ ديننا ، ونحن لا نستطيع أن نأخذ العلم إلا عن رجل نثق بدينه كما نثق بعلمه ، ونطمئن إلى إيمانه كما نطمئن إلى منطقه ، فإن لم يكن إلا العلم والمنطق ، لم ينفعاه عند الله شيئاً .

وأنا لا أقيس الأزهر على الجامعات ، فالجامعات فيها العلم والفن ، وفيها الكفر والإلحاد ، لا يمنع منه عندهم أنه كفر ، مادام يسمى باسم الفلسفة أو العلم ، ذلك لأن أسلوب الجامعات أسلوب عقلى لا يبالى بالدين ، ولا يتقيد بالوحى ، وديننا لا يعارض قضايا العقل المسلّمة وأحكامه الثابتة ، ولا ينافيها ، ولكن أين هذه القضايا ؟ وهل يكون منها كل حكم يوصل الباحث إليه عقله ؟ ففيم إذن تختلف العقول ، ويتناظر الفحول ؟ أفنبنى ديننا على آراء الرجال ، فكلما جاء واحد منهم ببدعة فى الدين قلدناه فيها ، وأقمناه بيننا وبين ربنا ، وجعلنا ما جاء به من شرعنا ؟ ومن يكون إمامنا فى ديننا إذا لم يبق فى الأزهر أئمة دين ؟

ألا يكون ذلك تحقيقاً للحديث ، ومعجزة للرسول عليه الصلاة والسلام إذ قال : إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من صدور العلماء ، ولكن يقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس أئمة جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا ؟

نعوذ بالله من الضلال بعد الهدى ، والكفر بعد الإيمان !

***

ألا إن ديننا يقوم على أدلة معروفة هى الكتاب والسنة الثابتة ، والإجماع الصحيح والقياس الجلى ، لا عمل للعقل فيها ، إلا الاستنباط والاجتهاد ، على (الأصول) المعروفة ، والسبيل المسلوكة ، واتباع البيضاء النقية ، والاقتداء بالسلف الصالح ، فإن جاوز هذا الحد ، لم يجز لمسلم أن يعوّل فى دينه عليه ، أو يرجع فى الحكم إليه .

ونحن نريد علماء من أمثال هذا الشيخ رحمه الله ، يعلمون ويعملون ، ويتبعون ولا يبتدعون ، ويتقون الله سراً وعلناً ، ويحكّمون الشرع فى خاصة نفوسهم وعامة أمورهم ، لا تذلهم الدنيا ، ولا يفسدهم الفقر ، ولا يطغيهم الغنى ، فإن كانوا كذلك فليخرّجهم أساتذة جامعات ، أو وعاظ جوامع ، وليكونوا بعدُ فلاسفة فالإسلام لا يعادى الفلسفة ما لم تكن كفراً ، وليكونوا باحثين فالإسلام يحب البحث ، وليكونوا مجددين بالاجتهاد ما داموا متبعين فى أصول الدين ، وليجلسوا على البساط أو على الطنافس ، وليقرأوا على السراج أو على الكهرباء ، وليسكنوا الأكواخ أو القصور ، ولينقطعوا إلى العلم أو ليكونوا أصحاب المناصب أو أعضاء المجالس وأولياء الأمر .

***

ولكن هل ينتظر أن تخرج هذه الجامعة الأزهرية أمثال أولئك العلماء ؟

هذه هى المسألة !

وأنا لا أحب أن أجيب عنها ، لأنى إن أجبت قلت مرّة ثانية :

« ردّوا علينا الجامع الأزهر ، لا نريد هذه الجامعة الأزهرية !! » .

(القاهرة) على الطنطاوى

لا تدابَروا أيها الرجال !

للاستاذ محمود محمد شاكر

زعموا أن رجلا ضلّ له بعيرٌ فأقسم لئن وجده ليبيعنَّه بدرهم، فأصابه ، فقرن به سِنّوْراً وقال للناس : « أبيع الجمل بدرهم ، وأبيعُ السنور بألف درهم ، ولا أبيعهما إلا معاً » . فقيل له : « ما أرخصَ الجملَ لولا الهرَّة ! » فذهبت مثلا !

والظاهرُ أن بعض ساستنا لا يفتأون يفعلون فِعْل هذا الأعرابىّ ، كأنما كُتبَ عليهم أن يتحدَّوْا دائماً إرادة هذا الشعب المسكين المصفّد فى الأغلال الوثيقة ، وكأنما كُتب عليهم أن يختلقوا العِنادَ اختلاقاً حتى يضيّعوا عليه كل فرصة سانحة لنيل حقوقه المهضومة منذ قديم الأيام ، وكأنما كُتبَ عليهم أن يتعيّشوا بنكَبات هذا البلد وآلامه . وإلاَّ فليحدثنا هؤلاء الساسة فيم يختلفون اليوم ، وعلامَ يتدابرون تدابُر الذئاب التى قال فيها القائل :

وكنتَ كذئب السَّوْء ، لما رأى دماً
بصاحبه يوماً ، أحالَ على الدَّمِ !

لقد ظلّت المسألة المصرية السودانية منذ أكثر من نصف قرن وهى تتخبط فى أساليب السياسة البريطانية وتكاذيبها وخُدَعها وتغريرها بعقول الرجال ، وتكاثرت النكَبات على مصر والسودان ، واتخذت بريطانيا صنائع لها لبسوا ثوب الصديق وهم ألدُّ عدوٍ وأبشعُه وأخلاه من الشرف والمروءة ، ولم تزل مصر والسودان تجاهد بطبيعتها الحرة الصريحة المكنونة فى صدور أهل هذا الوادى الحر النبيل ، فغلبت الشرَّ وقهرَته ، واستعلنتْ على أبْين ما تكون وأكمله ، فانتهينا من ذلك الوباء الفتاك الذى كان ينخر فى جسم هذا الوطن ، والذى كان يتهادى عليه من سماسم الناس « زعماء » — انتهينا من وباء « المفاوضة » ومن حصر المسألة المصرية السودانية فى حيازة بريطانيا وشرف تاجها ووُعودها المبذولة بألفاظٍ من سراب . وهذه النتيجة وحدها هى حَسْبُ مصر والسودان من جهادِهما ، فإنه لم يكن من المعقول أن يقف مغصوب ضعيف ليفاوض غاصباً قوياً مفاوضة الندّ للندّ كما كان « الزعماء » يزعمون ! ووالله ما ندرى كيف كان يجوز ذلك فى عقولهم « الزعيمة » ؟ وكيف كانوا يخدعون الناس عن عقولهم « المزعومة » ! ! ولكنه كانَ ، وعلم أسرار ذلك عند الله خالق الزعماء !

ثم خرجنا من بلاء المفاوضة إلى عرْض قضيتنا — قضية مصر والسودان — على مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة لتحكم بيننا وبين بريطانيا المغتصبة الجريئة على حقوق خلق الله ، وعلى الإيقاع بين الأمم والشعوب ، وعلى خلق المشكلات التى لا وجود لها ، كما فعلت فى فلسطين ، ثم تظاهرها بعد ذلك بأن حلّ هذه المشكلات هو همُّها ، وهو تعبٌ صبَّه الله عليها وحمّلها إياه ، وهى كانت تتمنى لو زعمتْ أن الله لم يصبّ عليها هذا التعب ولم يحمّلها عبء حله وتصريفه حتى تبلغ إرضاء المختلفين فى هذه المشكلات ! ! وهى تريد أن تخدع الأمم فى مجلس الأمن أو فى هيئة الأمم المتحدة بهذا الكذب الأبلق ، وعندها من أفانين الدعاية وأساليب الصحافة ، ومن رجال القلم واللسان ما يعينها على إجازة هذا الكذب الصِّرف إلى عقول الرجال فى مجلس الأمن أو سواه . وهى تعلم أن هؤلاء الرجال قليلا مايعرفون من سيئاتها ومظالمها وبغيها وجرائمها وآثامها فى هذا الشرق الذى ابتُلى بها وبخداعها .

وظنى بساستنا ، هداهم الله ، أنهم يعرفون هذا حق المعرفة ، فإن لم يكونوا يعرفونه فقد نُبهوا مراراً ويوماً بعد يوم ، فهم الآن على أتم علم بما يُخاف وما يُتجَنَّبَ فى ساعة العُسرة التى نحن فيها منذ فتح الله مغاليق القلوب المُصْمتة فأدركت أن المفاوضة عبث لا يُجدى ولا يغنى ، وإنما هو الجهادُ العامُّ فى سبيل نيل الحق المغصوب . فما معنى هذا التدابُر إذن ؟

معناه أن هؤلاء الساسة قوم تصرفهم أهواؤهم لا حقوق هذا الوطن الذى أعطاهم حق الحياة فيما أعطى ، ومعناه أيضاً أنهم قوم جمَدوا على سياسة لا يحسنون غيرها ولا يفهمون الأشياء إلا على أسلوبها ، وهو أخسُّ الأساليب ، ومعناه أيضاً أنهم يجهلون معنى خروجنا من أسر المفاوضات وارتفاعنا بقضية وادي النيل إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم المتحدة . ولو همْ نفوْا من

صدورهم هذه الشحناء القديمة البغيضة لأدركوا موقف مصر والسودان حق الإدراك . فالأمم لا ترتفع إلى مجلس الأمن أو هيئة الأمم إلا فى القضايا التى تهدد السلم العالمى ، أى التى يخشى أن تجر إلى حرب مبيدة بين الأمم ، فإذا ارتفعت أمتان إلى المجلس أو الهيئة لكى يحكم بينهما ؛ فمعنى ذلك أنهما قد بلغا مبلغاً يمكن أن يسمى « حالة حرب » كما يقولون اليوم ، وإذن فاحتكامنا إلى مجلس الأمن معناه أن ههنا « حالة حرب » يراد من مجلس الأمن أن يتداركها . فإذا كان ذلك كذلك فهل فى عقل عاقل أن تكون أمة فى ساعة أشبه بساعة حرب ، فإذا رجال من قادتها يقومون ليتنابزوا بالألقاب ويتكايلوا بالتهم ، ويتدافعوا بالبغضاء ، ويبسطوا ألسنتهم فى حديث الماضى الذى عفى عليه الزمن حين عفى على أسبابه وهى المفاوضات التى كان قوم يستأكلون بها كراسى الوزارات ومقاعد البرلمان ؟

ألا فليعلم هؤلاء جميعاً أننا لا نريد أن ننصر قوماً على قوم فما بنا إلى أحد منهم حاجة ، وأننا إنما نريد لهذا الوطن أن يخرج من المحن منصوراً مؤزراً ظافراً بالحق المسلوب . إن مصر والسودان قد أعلنت على بريطانيا — باحتكامها إلى مجلس الأمن — ما يمكن أن يسمى حرباً بغير سلاح ، فكل مصرى سودانى هو اليوم جندى منوط به حراسة الثغرات التى يتدسس منها العدو الأكبر وهو بريطانيا ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا زعيم ولا تابع ، فأهل هذا الوادى جميعاً يد واحدة وسواسية كأسنان المشط فى التكليف الذى كلفوا به ، وعلى كل منهم أن يبذل ما وسعه من النصيحة والمشورة للذين سيتولون الدفاع عن حق الوطن فى ذلك المكان الذى سنحتكم إليه .

وخير لأولئك الذين يقولون : إن فلاناً هذا لا يصلح لعرض القضية المصرية السودانية على مجلس الأمن أو هيئة الأمم أن ينزعوا هذا الإفك من ألسنتهم فإنه مضلة ومفسدة وخذلان للوطن لا لفلان أو فلان ، وخير لهم أن يقضوا الليالى الطوال فى درس الحجج التى سنتقدم بها لإقناع رجال يجهلون كل الجهل تاريخ النكبة البريطانية التى صبها الله على رأس مصر والسودان ، وخير لهم أن يستخرجوا آثام بريطانيا وضروب بغيها فى مصر والسودان ، وفى الهند ، وفى فلسطين ، وفى سائر بلاد الشرق ليعرضوها جملة واحدة تصريحاً أو تلميحاً ليكشفوا لرجال مجلس الأمن عن فظائع بريطانيا وأفعالها البشعة منذ سلطها الله على هذه البلاد فإن أكثر التاريخ الذى يقرؤه هؤلاء مكتوب بأقلام بريطانية وأهواء بريطانية . وإلا فحدثونا من من رجال مجلس الأمن ، فضلا عن شعوب هؤلاء الرجال ، عرف ألوان الخساسات التى ارتكبت فى دنشواى ، وفى فلسطين أيام الثورة العربية ؟ إننا لن نذهب إلى مجلس الأمن وحده بالقضية المصرية السودانية بل سنذهب إلى كل فرد فى روسيا وأمريكا وسائر الشعوب المشتركة فى مجلس الأمن . وإننا لن نذهب بالقضية المصرية السودانية وحدها ، بل سنذهب بجميع قضايا الشرق الذى ذاق نكال بريطانيا أكثر من قرن ونصف قرن . إننا نريد أن ندخل قضيتنا وسائر قضايا الشرق فى كل بيت وفى كل ناد وفى كل مصنع ، وفى كل مكان فيه إنسان يعقل — كما تفعل بريطانيا النادرة بباطلها الذى تنفثه فى كل حنية من حنايا هذا العالم ، متظاهرة بأنها المدافعة عن الحق وعن الحرية وعن العدالة وعن رفع مستوى الشعوب !! وباله من كذب لا يقله إلا الحق الأبلج ! فأين نحن من هذا كله ؟ أين ؟ أفى البغضاء ، وتمداد المساوى الماضية ، وبسط الألسنة فى المطوى من الأحداث القديمة ؟ إننا لن ننال شيئاً إذا فعلنا إلا الخزى والعار وعرض فضائحنا على أعين الناس !

إننا أيها السادة محاربون ، فافعلوا فعل المحاربين فى ساحة القتال ، لا فعل المتشاتمتين على قارعة الطريق . واذكروا هذا الوطن ، فهو أحق بالذكرى من ضغائنكم وإحنكم وثاراتكم . اجعلوا هذه كلها دبر آذانكم وتحت أقدامكم ، فإن الوطن يأمركم بهذا فأطيعوه ولا تطيعوا داعى الشهوات وكراسى الحكم ومقاعد البرلمان فكلها عرض زائل ، وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وهى هى التى تتقدم إلى مجلس الأمن بقضيتها ، لا فلان هذا ولا فلان ذاك ؛ فالكلمة الآن لمصر التى أنتم أبناؤها ، لا لأحد منكم على حياله . فأجمعوا أمركم ، ولا تحملنكم الكبرياء على تزييف القول إرضاء لشهوات أنفسكم ، فإنكم إن فعلتم كدتم لبلادكم وأوطانكم وشرقكم كيداً لا يكيده عدو حقود ولا شامت باغ لكم أهوال المصائب . وماذا تريد بريطانيا إلا اختلاف الكلمة وتفرق الوحدة ؟ ألم تدركوا بعد ماذا كان

يريد كهفُ بريطانيا بيفن حين زعم أنه لم يعرف أنه أخطأ إلا يوم عزمت مصر والسودان على رفع قضيتها إلى مجلس الأمن ، فإنه زعم أنه أخطأ إذ أدار المفاوضات بينه وبين حكومة أقلية ! ! ويا سبحان الله ! إنه لم يُرد من تلك الأكثرية التي يمرّض بها إلا أن تكون خصومة ولدّاً على حكومة الأقلية ، وأن يستثير دفائن الأحقاد ويفتّ من عضد الأمة التي سوف ترغمه وترغم بريطانيا على احترام إرادتها وحقها . فإن لم يكن في الاتحاد والتناصر إلا قتل هذه الكلمة وما ترمى إليه ، حتى يحمل الرجل حسرتها إلى الأبد — لكان ذلك واجباً مفروضاً وخيراً مرغوباً فيه . وكيف جاز في العقول — أعني عقول بعض الساسة — أن الأمر أمر حكومة أقلية أو أكثرية !! لا أدرى ، ولكنه كان .

ومع كل ذلك ، فالأمر كله تدليسٌ سخيف ، ففي البلاد المنكوبة المهضومة الحقوق ، لا رأى لأكثرية ولا أقلية بل الرأى للشعوب وللبلاد — أي للشعب من حيث هو تاريخ ماض وتاريخ حاضر وتاريخ مستقبل ، فحكومة الأكثرية لو هي خانت الأمانة وفرطت في حقوق البلاد ومهرت ووقعت وأسلمت المقاليد وعقدت المعاهدات وأقرها البرلمان وأجاز كل ما جاء فيها من تفريط — فذلك كله باطل ، لأن الحق ههنا حق طبيعيٌّ متوارث في البشرية كلها ، لا يغيّر رأى الأكثرية شيئاً من حقيقته وجوهره ، ولا تملك الدولة القائمة في أرض البلاد المحتلة أو المهتضمة أن تنزل عن هذا الحق لأحد ، فنزولها عنه عملٌ باطل من أصله . وإذن فالذي يقيّد الأكثرية ، ويؤيدها هو حق الشعب وهي بحرصها على هذا الحق تسمى أكثرية لا بغيره . فلو جاءت الأقلية وفعلت ما يدل على أنها حريصة على هذا الحق الطبيعي المتوارث الذي لا يمكن حكومة أن تتنازل عنه لأحد ، فهذه الأقلية بمنزلة الأكثرية ، لأنها هي المطالبة بالحق الطبيعي ، وهذا شيء بيّنٌ واضح ، اللجاجة فيه شهوة وعبث .

أوليس عاراً أن يكتب المرء مثل هذا لقوم كان لهم جهاد في سبيل بلادهم ؟ إنه لعار . ألم يكن لهؤلاء أسوة حسنة في سورية ولبنان حين وقفت صفاً واحداً كالبنيان المرصوص ، على ما كان يومئذ من اختلاف أشد وأعنف من اختلاف رجالنا ؟ بلى قد كان .

أيها الرجال ! إن العالم كله ينظر إلينا ، وإن قلوب الشرق كله تخفق إشفاقاً علينا وحباً لنا ، وإن الأمم الجريحة التي مزّق الوحش البريطاني أوصالها قد كفّت عن الأنين لتسمع صوتكم وهو يُدوّى في جنبات الأرض لتنسى عندئذ آلامها وأوجاعها ، وإن فلسطين — وآه لفلسطين — إن الجزع ليأكل قلوب أبنائها مخافة أن تزل أقدامنا ، وهم قد ناطوا بنا رجاء قلوبهم . فرفقاً أيها الرجال ولا تخذلوا شعباً مجاهداً كتب عليه أن يقاتل أنذال الأمم .

أيها الرجال ! لا يغرنكم هذا الوحش البريطاني ، فإنه يضرب بقوائمه وهو كالصريع فذفّفوا عليه باتحادكم ، وأجهزوا عليه بتناصركم ، وانسوا ما مضى وخذوا عُدّتكم للذي سيأتي ، فإنه النصرُ لمصر والسودان بإذن الله مُذلّ الجبابرة ، ومُرْغم الطغاة الغادرة ، وناصر الأمم المتآزرة .

محمود محمد شاكر

صحائف مطوية :

رأس النقب وخليج العقبة

حملة البرنس أرناط على الأراضي المقدسة الإسلامية عام ٥٧٨ هجرية

للأستاذ أحمد رمزي بك

قالوا « الحرب رحى ثقالهـا الصبر وقطبها المـكر ومدادها الاجتهاد وثقافها الاناة وزمامها الحـذر » (العقد الفريد) ، أما تلك التي أضعها أمامك فكانت ملحمة من ملاحم الحروب الفاصلة جمعت بين قوات البر والبحر معا ، وقامت فيها المصادمة على ظهور المراكب والمطاردة على رمال الصحراء . ولم تتسع للصبر لأن السرعة كانت عنصرها ، ولا للمـكر والاجتهاد واصطناع الخديعة لأنها جاءت على غير استعداد ، ولم يصاحبها الحذر لأنها بُنيت على المفاجأة والاقدام .

كان مشروعاً دفعـه الحقد والحمق والغرور ، ذلك المشروع الحربي الذي دار بمخيلة البرنس أرناط صاحب الـكرك وتسـميه الفرنجة Renauld de Chatillon فقد أقسم أيمانا مغلظة على فتح الحجاز وإيذاء المسلمين في أشرف بقعة يقدسونها ، ولذلك أنشأ أسطولا في أراضيه جمله من قطع حملتها الابل ، وسارت بهـا وسط القفار ليلقي بهـا في خليج العقبة ، وساعده بعض أشرار البدو في عدوانه ولم تأت سنة ٥٧٨ إلا والأسطول يمخر عباب البحر الأحمر ، وإذا به ينقسم إلى فرقتين أقامت الأولى على حصن المسلمين بخليج العقبة تحاصره ، واتجهت الاخرى جنوبا تهاجم موانئ البحر على الشاطئين الاسيوى والافريقي فاختل طريق الحج وأخذ الأسطول يطارد المسلمين في عقر ديارهم وعلى أمواج بحرهم ، فأصبحوا تحت رحمة هذا الجبار ، ولما وصل الخبر إلى مصر وكان بها الملك العادل ابو بكر نائباً عن أخيه السلطان صلاح الدين ، بادر بانشاء أسطول نقله إلى خليج السويس وسلم قيادته للحاجب حسام الدين لؤلؤ ، فسار مجداً في طلب الفرنجة حتى أوقع بهم بعد أن أمضوا شهوراً يجوبون البحر الأحمر إلى عدن وينزلون مقاتلتهم إلى ساحل الحجاز ، فأحدثوا أموراً لم يسمع في الإسلام بمثلها حتى ذكر المؤرخون « أنهم توجهوا إلى المدينة النبوية فلم يبق بينها وبينهم سوى مسيرة يوم واحد » .

قرأت هذا في مراجعنا ثم وقع نظري على ما كتبه الأب لامنس اليسوعي إذ قال : « لفت خليج العقبة وموقع أيلة أنظار البطل الصليبي ولمس أهميته فعمل على احتلال تلك البقعة ونشر الرعب بأسطوله ، ولا شك في أنه ضرب مثلا باقدامه وجرأته لجمع كبير من أبطال الاستعمار الاوروبي وبناته الذين جاؤوا من بعده فجاهدوا مثل جهاده ، فهو الذي شق الطريق أمامهم وهم نسجوا على منواله »

حركني هذا الكلام مع غيره مما قرأت من كتاب الاوروبيين الذين أشادوا بعمل البرنس ارناط ، أن أتتبع هذه الملحمة ، التي لم تعجبني الدوافع التي أملتها ، وإن كانت عملا حربيا كبيراً فيه المجازفة والمخاطرة إلى أبعد حدودها ، وأعجبت من عمل مصر ورجال صلاح الدين الذين عالجوا الموقف وخطورته بجرأة وإقدام ومجازفة لا تقل عما لدى الخصم وكان أن كتب النصر لهم .

فلنقف هنيهة لننظر ما يقدمه لنا ذلك العصر من بطولة وقوة ومن مشاكل وأحداث ومصاعب : في الفترة التي برز فيها هذا الخطر كان صلاح الدين بعيداً عن مصر ، يجمع شتات ملك الشام . كان ينازل الموصل بعد أن تم له فتح حران وسروج وسنجار ونصيبين والرقة وجميعها من بلاد الفرات الشامية ، فإذا برسول خليفة بغداد يستعطفه بشأن الموصل فيرحل عنها ليأخذ حلب من عز الدين مسعود الاتابكي ويعوضه عنها بسنجار .

في وسط هذه المعامع القائمة وتبدل الدول حيث يعمل البطل الكبير إلى عودة حدود المملكة المصرية الإسلامية إلى سابق عهدها ، كما كانت أيام آل طولون والاخشيد والفواطم في إبان مجدهم ، يفاجأ بهذه الحركة التي يقصد منها عرقلة مشاريعه وقطع اتصاله مع عاصمة ملكه . وسنرى أن العاهل الكبير أدرك خطورة هـذه الحملة فقطع ما كان مزمعـا عليه وعاد إلى الشام ليدبر حملاته الكبرى التي افتتح فيها اراضي الكرك والشوبك ثم انتهى إلى حطين حيث وقع البرنس ارناط اسيراً بين يديه .

لقد خدم ارناط العروبة ودين محمد ، فقد كنا نحبو إلى حطين

حبواً ، فإذا بالطاغية وماحمته التي اثارها يجملنا نركض إليها ركضا ، نعم ، لنكتب على صعيد فلسطين أنباء المركة الفاصلة في التاريخ والتي حطمت ملكا أنشأه الفرنجة ظلما على أراضي آسيا الإسلامية بضربة واحدة ، وقدم ارناط للشرق كأساً مملوءة بالظفر شربها أبطالنا بعد مضي قرن من الزمن على المركة الأندلسية الكبرى التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين على جموع الاسبان وفلول الادفونش (٤٧٩هجرية - ١٠٨٦ميلادية) وأثبت عن حق أن عزائم المرابطين من قبائل المغرب كانت أقوى من عزائم الاسبان وفرسان أوروبا .

تلك هي الملحمة التي كانت في الماضي نعمة علينا فالبستنا من بعد حطين ثوباً من القدرة والانتصار ، مالي أراها تعاودني وتقلق مضاجعي ؟ اهناك أشياء آنية المسها من بعيد ، سيخلقها المستقبل لنا؟

أني أذكر تماماً أنه في عام ١٩٣٥ حينما كنت بالقدس جاء إلى كاتب يهودي وقدم إلى مؤلفا بالعبرية كتبه عن أراضي النقب وطلب إلى أن أقرأه . وكان أن ساءلت نفسي ما الذي يشغله بهذه البقعة النائية عن الحضارة الخالية من السكان ، وماذا يقصد هؤلاء من النقب ، وهم لا يكادون يصلون إلى قرية بئر السبع إلا بشق الأنفس ؟ لم أر الأمر بعين الجد ، ودار حديث مع المؤلف عن هجرة إسرائيل من وادي النيل وضلالهم في سيناء ، وعرضنا لكلمة التيه وعلاقة هذا الاسم بتلك القبائل التي تخطر في الريف المصري باحثة عن المرعى لقطعانها من الغنم والتي يطلق عليها العرب من السكان اسم هتيم ؟ هل هم سكان التيه ؟ لا أدري . وما خرج المؤلف حتى فتحت الكتاب فإذا به خريطة عاملة لتلك البقعة الهامة من أرض الشرق العربي التي ستؤثر في تاريخنا لألف سنة قادمة . واتجهت انظاري إلى العقبة إذ هناك تنتهي أراضي فلسطين الحديثة ، وتذكرت النزاع الذي قام عام ١٩٠٦ بين مصر والدولة العثمانية أو بين بريطانيا وتركيا . وتخيلت مجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية والخرائط كنت اطلعت عليها من زمن مضى ومعها صور للفرمانات السلطانية التي منحت للخديويين والولاة ، وكانت الحدود بين مصر والدولة صاحبة السيادة عليها تنتقل بين السويس والعقبة أي تنتهي مرة هنا وأخرى هناك

فما الذي حرك السياسة البريطانية عام ١٩٠٦ لاثارة مسألة العقبة وجعلها مسألة دولية وما الذي دفعها لكي تفرض إرادتها فرضا على الدولة صاحبة السيادة على مصر ؟ أكانت تقرأ في عالم الغيب والشهادة تطورات ضرب فلسطين ومواقع القتال أم معارك الدردنيل عام ١٩١٥ ؟ أما التقارير الرسمية والأوراق السرية فقد أظهرت للعيان أن خطط اقتحام المضايق وغاليبولي قد وضعتها قيادة البحر مع اشتراك قيادة البر في سنة ١٩٠٦ وهي السنة التي تمت فيها اتفاقات العقبة بين مصر وانجلتره من جانب والدولة العلية من جانب آخر ، فهل كان هذا من قبيل المصادفة ليس إلا ؟ لا أستطيع لذلك جوابا لأن للسياسة الأوروبية أسراراً وطلاسم أعجز عن فهمها .

مر كل هذا بذاكرتي بعد أن قدم المؤلف اليهودي كتابه مجلداً تجليداً حسناً ومهدى إلى ممثل الدولة التي مهدت له الدراسة ومهلت له التنقل في ربوعها ليبحث مسألة علمية ، وليساهم بقسط ضئيل في المعلومات والابحاث عن أرض النقب ، والنقب اسم متسع يشمل اجزاء من فلسطين وغيرها في نظره .

وتمر الأيام والسنوات تترى وتشاء الأقدار أن أعيش بمصر بعيداً عن الحياة العامة ، فتهتز نفسي يوماً اهتزازاً قويا ، ذلك لأن الجرائد اليومية تنشر ضمن أخبارها برقية من فلسطين تنبيء بأن جماعات صهيونية زحفت على أرض النقب وانشأت في بضع ساعات عشر مستعمرات يهودية في أماكن لم تكن مسكونة من من قبل .

نعم نقلت العمال والزراع والسكان ومواد البناء والبيوت مفككة وآلات الزرع والأثاث على السيارات في ليلة واحدة وانشأت المستعمرات انشاء وأحكمت البناء ولم تقدر السلطات على الوقوف أمام هذه الحركة ولا ردها ، ولم يكن هناك سكان لأن أراضي النقب غير عامرة ، أما أهل البلاد وأصحابها فكانوا في نوم عميق

هنا انتبهت وعدت إلى حملة ارناط أطلب الوحي منها . ألم ينقل المراكب والسفن مفككة على الجمال ؟ ألم يحط مشروعه بالكتمان ليبرز عنصر المفاجأة والمخاطرة ، ألم يكن سريعاً في تصميمه وتنفيذ أغراضه . ولكن جاء رد الملك العادل سريعاً وحاسماً ، لم يحجم ويتردد ، لم يستشر ولم يترك الوقت يغالبه بل انشأ الأسطول ودفعه إلى البحر ، وجاء بالحاجب لؤلؤ وكان مظفراً وشجاعاً ومجداً فأخذ الأمر بالمفاجأة والمخاطرة والاقدام وكتب

للمسلمين صفحة من المجد .

فأين عمله من عملنا اليوم ونحن إذا رصفنا طريقا بين مصر والعباسة أمضينا الشهور والسنوات وغيرنا يقيم عشر مستعمرات فى ليلة واحدة ؟ .

رأس النقب يعمر وخليج العقبة تعود إليه الحيــاة ، إنها لكبيرة على النفس لأن صفحة جديدة من العراك والتصــادم تبدأ ، لو كنا احياء نشعر بالاعصار القادم علينا .

***

إذا اردت أن تعرف بالضبط مدى هـذه الصيحة ، أفتح خريطة لهذه المنطقة تجد حدود أربع دول تتلاقى فى بقعة واحدة هى نهاية خليج العقبة ، وتبدأ حدود مصر من « طابة » وهى مع فلسطين لايشار كهما فيها أحد ، أى إذا اردت الذهاب لشرق الأردن أو الحجاز أو نجد ، يجب أن تمر بالمر الفلسطينى وهو مثل ممر دانتزيج الشهور ، وبهذا المر تتصل فلسطين لأول مرة فى التاريخ مع المحيط الهندى واستراليا بدون أن تحتاج لقناة السويس . ماذا يخبئه لنا هــــذا الاتصال وماذا سيكون من أثر هذا المر الأرضى؟ أشياء كثيرة سيعرفها الأبناء والأحفاد قبل أن يلمسها الأحياء الآن لانهم لاهون بأنفسهم وأطماعهم — أما من الناحية الأخرى فهنالك تتلاقى حدود مملكتين هما العربية السعودية وشرق الأردن ، وتقع مدينة العقبة فى داخل حدود الثانية .

لننظر الآن ماذا يقول القدماء عن العقبة : هى عقبة ايله وهى مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ البحر تعد فى بلاد الشام وهى جليلة بها مجتمع حاج الفسطاط والشام[1] . وورد عن أيلة فى قاموس الكتاب المقدس أنها فرضة شهيرة فى أرض أدوم على الشاطئ الشرقى من الخليج ، مر بهــا بنو اسرائيل وكانت ذات شأن فى زمن سليمان والارجح أن داود تغلب عليها ثم استرجعها أهل أدوم . ونقل المقريزى فى خططه أنها « كانت حد مملكة الروم وعلى ميل منها باب معقود لقيصر وكان بها قوة مسلحة يأخذون المكس ، وكانت فى الإسلام منزلا لبنى أمية وأكثرهم موالى عثمان بن عفان وكانوا سقاة للحج ، وكان بها علم كثير وآداب ومتاجر وأسواق عامرة وهى كثيرة النخل » ، وقال عن العقبة « لا يصعد إليها من هو راكب ، ولذلك أصلحها فائق مولى خمارويه بن أحمد بن طولون ومهد الطرق إليها » ، وعرض فى خططه إلى الحوادث التى نحن بصددها أى إلى حملة البرنس ارناط بتفصيل أعم مما ذكره فى السلوك فقال نقلا عن القاضى الفاضل : « فى سنة ٥٦٦ أنشأ صلاح الدين مراكب مفصلة وحملها على الجمال وسار بهــا من القاهرة فى عسكر كبير لمحاربة «أيلة» وكان الافرنج قد ملكوها وامتنعوا بها فنازلها فى ربيع الأول وأقام المراكب وأصلحها وطرحها فى البحر وشحنها بالمقاتلة والأسلحة وضيق عليهــا الحصار فى البحر حتى فتحها ثم أسكن فيها جماعة من ثقاته وقواهم بما يحتاجون إليه من سلاح وغيره وعاد إلى القاهرة »

وعن القاضى الفاضل أيضا «فى سنة ٥٧٧ وصل كتاب من نائب القلعة ان المراكب على تحفظ وخوف شديد من الافرنج إذ وصل البرنس (يقصد ارناط صاحب الكرك) وسير عسكره إلى ناحية تبوك ، وربط جانب الشام لخوفه من عسكر يأتى لمحاربته من مصر » وإنما سقنا كل هذه الاشارات ووضعنا فى وسط كلامنا ما سجلته المراجع لكى نثبت للقارئ المتيقظ الذى يهمه أمر مصر والبلاد العربية ومستقبل الأجيال القادمة شيئا واحداً : هو أن خليج العقبة ورأسه حيث ملتقى الحدود الأربعة كان موقعاً استراتيجياً مهماً جداً يؤثر فى عوامل التاريخ وبناء الممالك وفى حفظ الحدود وسوق الجيوش فى الجاهلية وفى الإسلام وقد ظهرت خطورته فى الحروب الصليبية وكاد أن يكون ضياع هـذا الركن حاسماً لولا أن قيض الله للمسلمين الملك القائد العظيم صلاح الدين الأيوبى ، الذى عرف فى الوقت المناسب أن يسد هذا الخرق ويحفظ هذا الثغر ويقى البلاد من عبث « أرناط » واخطار رجاله

ونعلم الآن ان هذا الموقع لم يكن مجمع الحاج من مصر والشام فحسب بل كان أكثر من هذا كان طريق الاتصال الوحيد بين مصر والشام حينما انقطع الطريق المعتاد بينهما بتهديد الصليبيين وأنه لولاه لتعذر على جنود شيركوه وابن أخيه صلاح الدين انقاذ مصر ، ولولاه لتعذر على جند مصر الحصول على شرف القتال بمعارك فلسطين والشام . وإذا قلت ان طريق البحر كان مفتوحاً بين مصر والحجاز فلدينا وصف شامل عن رحلة ابن جبير الأندلسى من القاهرة لجدة وما لقيه من المتاعب فى طريق البر والصحراء وطريق البحر من عيذاب وما تعرض له من اخطار . فنحن أمام

(١) كلام أبى عبيدة نقله ياقوت

موقع هام من مواقع التاريخ يستدعى أن تتلاقى الحدود بشكل يسمح باجتماعها فى نقطة واحدة . وتنحدر من الماضى إلى العصر الحاضر وأهم مظاهر الدنيا هى الحروب ، فقد ذكرت المؤلفات الرسمية التى نشرتها وزارة الحربية البريطانية عن تاريخ الحرب العظمى الأولى طبعة ١٩٢٨ ما يأتى « لقد أصبح من المحتم بعد نشوب معركتى غزة الأولى والثانية مارس وإبريل سنة ١٩١٧ احتلال العقبة ، وقد تم ذلك بواسطة لورنس فى يوليو ١٩١٧ ؛ وباحتلالها مهد الأسطول فى جعلها قاعدة حربية ومركزاً عسكريا ممتازاً ساعد كثيراً فى تهيئة واعداد العمليات الحربية التى سندت ميمنة جيش اللنبى فى قتاله مع الأتراك » ولبيان ذلك نرجع إلى ما كتبه حاكم القدس السابق « سنورس » فقد قرر « أن فترة الجمود التى سادت الجزيرة قد انتهت باحتلال العقبة التى أخذت مكان رابغ والوجه ، وجاءت الحرب العظمى الثانية فإذا بخليج العقبة من أحسن الأماكن أماناً لتفريغ العتاد الأميركى والمؤن والذخائر لبعده عن غارات الطائرات ، وكان أن انشأت السلطات العسكرية البريطانية خطاً حديديا اضافيا يبدأ من مدينة معان وهى على الخط الحديدى الحجازى ويتجه إلى الجنوب مشرقاً حتى ينتهى إلى رأس النقب . ومن هناك نظراً للانحدار الشديد تعذر أن يصل القطار إلى البحر فاكتفى بانشاء طريق معبد للسيارات انتهى إلى ثغر العقبة

هذه كلمة أولى عن المنطقة الواقعة على رأس خليج العقبة وهى فى الوقت نفسه رأس النقب إذا أطلقنا هذا الإسم على الشكل المخروطى الذى يبدأ عريضا من الشمال ويتقارب كلما انحدر جنوبا وهو الجزء من فلسطين الواقع بين حدود مصر وحدود شرق الأردن والذى صمم الصهيونيون على استعماره واستغلاله للوصول إلى البحر الأحمر ، وهم يتحدون بعملهم التاريخ والطبيعة والأقطار العربية . فما الذى أعددناه لمواجهة هذا النشاط الانشائى ؟

تبدو لى دائما الحركة الصهيونية أنها تحاول أن تأخذ شكلا توسعيا جارفاً ، ولكنى مع هذا ألمس أنها تسير وئيداً بخطوات منظمة ومتصلة وهى حركة خطيرة لأنها لا تحمل طابع الغرور والادعاء ولا تعتمد على الاغراء والزخرفة والتشويق وانما على الوسع والطاقة والعلم والتنظيم ، وتمر الأيام فإذا بخبر من رأس خليج العقبة ينبىء بان أول منظمة يهودية لصيد الأسماك قد ظهرت على شاطىء البحر الأحمر وستكون بعد هذه الخطوة خطوات .

فماذا اعددنا للعمل فى هذه الناحية ؟ وهل المياه الاقليمية لمصر والمملكة السعودية محروسة ؟ وما هى القوة التى تحرسها فى خليج العقبة فى الوقت الذى تمر به أكبر الحوادث فى مستقبل العالم العربى ؟ لا أعرف شيئا عن اجتماعات العرب واتجاهات الجامعة فأنا بعيد عن الحاضر أعيش فى التاريخ ، ولذلك انقل من كتاب بعث به السلطان صلاح الدين إلى أخيه عن الاسرى الذين أتى بهم لؤلؤ إذ قال « هؤلاء الاسارى قد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها ، وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ، ولو جرى فى ذلك سبب والعياذ بالله لضاقت الاعذار إلى الله والخلق وانطلقت الألسن بالمذمة فى الغرب والشرق » وتقدم الشعراء بمدح الحاجب لؤلؤ فمن ذلك قول أبى الحسن ابن الدروى .

مرّ يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدى فيه السرور الجماد
إذ أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم فى طيها الاصفاد
بجبال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادى ... وسواه من اللآلى يصاد

وهو شعر كما ترى يتفق مع حالنا اليوم فى البيت الأخير .

أحمد رمزى

ليس هذا هو الطريق
يا مسيو ديهامل!

للأستـــــاذ عبد المنعم خلاف

فرنسا تحس وتعلم غاية العلم أنها فقدت كثيراً مما كان لها في العالم العربي من أمكنة ومكانات، وضيعت كثيراً من هيبتها وسمعتها لدى العرب، وأن الثقة القديمة بالروح الفرنسي والثقافة الفرنسية أصابها كثير من الزلزلة والشك والهزال بعد تلك الصدمات التي طوحت بفرنسا وسحقتها في معترك الأقوياء الذين أحاطوا بها من الشرق والغرب، وبعد تلك المواقف غير المشرفة التي وقفتها في سوريا ولبنان ولا تزال تقفها في المغرب العربي الواقع تحت حكمها القاسي الجامد المتغافل عن تيارات الحريات التي تحيط بالناس وتفتح أعينهم على عالم جديد وتكتسح العوائق والسدود.

فرنسا تعلم ذلك وتقدر ما له من نتائج على مستقبلها بل على حاضرها وتريد أن تتخذ الحيطة للاحتفاظ بما بقي لها من تلك السمعة المتداعية ولإنمائها إذا أمكن ذلك حتى تعود إلى المكانة السامية التي لم تكن تدانيها فيها حتى انجلترا ذات السيطرة الرسمية وذات العلاقات الوطيدة في كثير من البلاد العربية..

لكن فرنسا من سوء حظها تخطئ في التماس الوسائل إلى إعادة سمعتها ومكانتها وتصطنع تلك الأساليب السطحية التي أصبحت لا تتصل بصميم ضمير الشعب العربي ووعيه ولا ترضى طبيعته التي شبت عن الطوق ولم تعد تنطلي عليها تلك الدعايات التي تتصل بالترف الذهني والعلاقات الكمالية وإرضاء بعض الطبقات الموشكة على الانقراض في الحياة المصرية، طبقات الصالونات والأندية التي تعيش بمعزل عن غمار الحياة اليومية المصرية والقومية العربية.

فإذا كانت فرنسا تريد أن تسلك السبيل القريبة إلى صداقة القومية العربية الناهضة التي أصبحت حقيقة سياسية ملموسة يحسب لها حساب في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد، وإلى صداقة المصريين الحقيقيين بنوع خاص فعليها أن تلتمس لذلك وسائله العملية وتترك أمر الدعايات الكلامية والسفارات الأدبية التي تجند لها بعض مفكريها وأدبائها كمسيو جورج ديهامل الكاتب الشهير وتحملهم مشقة السفر وعناء الرحلة والحديث المكرر المملول عن فرنسا وخدماتها للثقافة ثم لا يكون من وراء ذلك طائل كبير ولا تبقى آثاره إلا ريثما ينقضي الحفل وتنفض سوامر الصالونات ولا يرسب من ذلك شيء في أعماق المجتمع المصري يصح أن يكون ذخيرة أو خميرة لبناء صداقة عربية فرنسية تخدم الحضارة وتكون عاملا من عوامل الاستقرار والتفاهم والتوازن في البحر الأبيض المتوسط الذي يحتل العرب الجزء الأكبر منه. فعلى فرنسا إن كانت تريد عملا لا كلاماً أموراً هامة نرشدها إليها لأننا أعرف من فرنسا بما يفتح قلوبنا لها:

عليها أن تغير أولا نظرتها «الصليبية» بالنسبة للعرب والمسلمين التي حملتها على احتقار المغاربة والعرب عموماً والتنكيل بهم، وأن تتحرر من ذلك التوجيه الحاقد الذي يستمد حقده من تلك الظلال والأشباح السوداء التي كان يثيرها المثيرون المتعصبون في القرون الوسطى على العرب ويجعلونهم أمام الجماهير حلفاء الشيطان ويتخذونهم وسيلة لاثارة ذلك الشعور الذي كان يسمى «الحقد المقدس»!

وتعلم فرنسا وخصوصاً مفكريها الذين تجندهم للدعاية، أن نظر العالم لم يعد يطيق ذلك اللون السخيف الذي يبدو في محاولات المستعمرين الفرنسيين في شمال إفريقية لفتنة البربر والعرب المسلمين عن دينهم، وضرب الحصار على أبنائهم ليحال بينهم وبين التعرف إلى قوميتهم ولغتهم التي صحبتهم منذ فجر التاريخ.

إن هذا منكر غليظ ورجعية عمياء لا تريد أن ترى طبائع الأشياء وتحاول فصل ما ربطته مشيئة الله التي نوعت الناس أجناساً ولغات لأمر عظيم على جانب من الخطر في عالم الفكر وعالم العمل!

وعلى فرنسا أن ترفع يدها عن ضرب ذلك السور الحديدي حول تونس والجزائر ومراكش، ذلك السور الذي لا يسمح لداخل غريب أن يدخل ولا لخارج أن يخرج ولا يسمح لعيون الناس أن يروا آثار حكمها السعيد! في حياة هؤلاء الأرقاء التعساء الذين ابتلوا بأن يعيشوا في أوطانهم كأنها سجون، الداخل فيها مفقود والخارج منها مولود؛ فإن هذا أعجوبة الأعاجيب في القرن العشرين، حتى ولو كانت هذه البلاد مستقلة استقلالا تاماً ومحكومة ذلك الحكم بأيدي فريق من أبنائها لكان ذلك النوع من ضرب الحصار الحديدي عليها أسلوباً عجيباً في هذا العصر!

وعلى فرنسا أن تقلع عن سياسة الإفقار والتجهيل التي تفرض بها البؤس والجهل على سكان هذه البلاد وتعزلهم بذلك عن حياة العالم وتفنيهم الفناء الأكبر بحرمانهم من وسائل العلم العصري الذي يجعلهم أبناء حقيقيين لزمانهم يساهمون في خدمة المعارف الإنسانية وفي إمداد شعلة الحضارة ومد نورها على ديارهم

وهم من أذكى الناس وأشدهم جلداً على التعلم والعمل . وإذا نسى التاريخ مخازى الأمم فلن ينسى لفرنسا أنها تتخذ سياسة تجهيل المغاربة عمداً وترسم لذلك الخطط وتستفتى مفكريها ليهدوا فريقاً من الناس إلى طريق الجهالة العمياء ، ويصرفوهم عن طريق المعرفة البيضاء ! إن هذا أكبر عار يلحق بفرنسا ، وإنه لأكبر «ارتداد» عن رسالة العلم ، وإنه لجدير أن يخزى وجهها يوم يستعرض عملها أمام هيئة الأمم المتحدة وينشر على رءوس الأشهاد فى يوم آت قريب

وإنى لا أذكر لفرنسا هذا الموقف المخزى إلا أشعر أن سخط الإنسانية كلها لا القومية العربية وحدها يثير فى دمى القشعريرة والاشمئزاز وعلى فرنسا أن تسير مع الزمن فى علاقاتها السياسية بشمال إفريقية وأن تتطور كما يتطور غيرها فى ارتباطاتها بالشعوب العربية التى بينها وبينها مصالح ، وأن تعلم أن الفجر الدولى قد سطع على العالم وكشف أوكار الرجعية والاستبداد ولن يخفى على العيون ما تفعله فرنسا فى إفريقية مهما خيل إليها أنها ستصل إلى غاياتها الظالمة فى غفلة عن الرقباء ، وأن تقلع عن خرافة سلخ أى جزء من المغرب من جسم العروبة لضمه إليها فإن ذلك لن يكون لها يوماً ما ، لأنه ينافى طبيعة التكوين وحقائق السياسة العالمية الراهنة

فيا مسيو ديهامل إن كان عليك لوطنك واجب فعليك للإنسانية مثله والمفكر المخلص إنسان تملكه الإنسانية كما تملكه وثنية الوطن

فإن كنت تريد أن تعيد مجد فرنسا لامعاً واسمها عالياً كما كان فسخر قلمك للدفاع عن الحقائق الانسانية العليا الأبدية التى تحتل الحرية فيها مكان الصدارة واجعل فرنسا أم الحرية فى زعمكم لا تنكس لواء الحرية ولا تمرغه فى الوحل والدم فى الجزائر ومراكش وتونس .

وإذا كانت فرنسا هى حياتك — كما حاضرت المصريين — فاجعل حياتك هذه صورة مما ينشد فكرك الحر وأدبك الحار وقلبك العامر لا كما ينشد الفرنسيون الرجعيون الحاقدون والسماسرة والدجالون والجاهلون اللاعبون بالشعوب الذين لا يدركون سير الحياة بالأحياء ولا يعرفون منطق هذا العصر الذى يعيشون فيه بثياب المتحضرين وجلود الآدميين بينما قلوبهم هى قلوب القردة ووحوش الغاب ..

وإنها لرسالة لك فى فرنسا إذا أردت : أن تعود إليها رسول آلامنا من أجل بنى قومنا المثخنين بجراح بنى قومك ! وقد أرسلتك إلينا « السياسة » التى لا قلب لها لشأن من شئونها الخادعة ، فارفض أيها الكاتب أن تخدع . وعد إليها رسول الآلام الإنسانية التى عانت فرنسا مرارتها وحرارتها فترات مظلمة من الزمان البعيد قبل الثورة التى حولت مرارتها حلاوة وحرارتها نداوة ، وفترة مظلمة من الزمان القريب الذى لا يزال وقع الحذاء الألمانى فيه على أرض فرنسا يصخُّ آذان أحرارها !

يا مسيو ديهامل ! أيها الأديب الكبير ! إننا هنا فى الشرق ندعو أن يثور المفكرون على الواقع السيء الذى يسيطر عليه العوام وأن تتحرر الرءوس من سلطان الأقدام ، والجامعات من منطق الشوارع .. لأننا نرى فى هذه المدنية الحالية مدنية الحرية والعلم نبوة شيوعية من لم يؤمن بها فقد صبأ عن الإنسانية ، ومن سخرها بغير أهلية لها فقد ألحد فيها ، مع أننا لا نزال فى دور فتح العيون على فجرها ولم نأخذ منها ما أخذتم معشر الغربيين ، وليست منسوبة إلينا ، بل تنسبونها أنتم إليكم . فلماذا لا تدافعون عن سمتها وعن حقائقها دفاع أنبياء إسرائيل الشرقيين القدماء عن حقائق الإيمان والنبوات الأولى ؟ لماذا لا تذوقونها بأرواحكم وقلوبكم بدل ذواقها بجيوبكم وخزائنكم ؟! لماذا تجعلون رسلها إلى بلاد المتخلفين هم من السماسرة والمتغطرسين والحاقدين والمتعالين؟

إن اللوم فى ذلك واقع على أرباب الفكر الذين يرون هذا ولا ينكرونه ، ويرضون لأقلامهم وألسنتهم أن تسخر وراء القطيع الذى لم يدرك أمانة الفكر وحراسة شعلة الحضارة فى الروح قبل الجسد

وما أظنك ترضى لو علمت أن أربعين ألفاً من العرب الجزائريين قتلوا فى « سطيف » بالجزائر ، لأنهم طالبوا بحريتهم فى أيام الاحتفالات بعيد النصر سنة ١٩٤٥ ؟

إن صراخ دم هؤلاء الضحايا يجب أن يؤرق نومك ويمد قلمك بمداد من نار لتثأر من قتلة هؤلاء الأحرار الذين طالبوا بالحرية التى يمجدها قلمك وأقلام إخوانك وإلا كنت غير مخلص لرسالة الفكر

وما أظنك ترضى أن يعيش خمسة وعشرون مليوناً من النفوس محرومين من عصارة فكرك وفكر أمثالك ومعارف الدنيا لأجل أن يكونوا سوائم بلهاء تحرث أرضها وتحلب ضرعها لتستولى عليه عصابات المستعمرين الرأسماليين فى فرنسا ؟

واعذرنا إذا كنا نتهكم ونسخر مما تقول ويقول أمثالك عن فرنسا وروحها الحر وميراث ثقافتها ، ما دمنا نرى أن هذه كلها بضاعة تستهلك فى فرنسا ولا تصدر إلى الخارج ..

هذه كلمات صادقة أردت أن تخلص إليك من بين مجاملات الصالونات ، وأنا أعلم أن واجب مثلك أن يحرص على سماع الصدق الصريح .

عبد المنعم خلاف

الأدب في سير أعلامه :

٤ ــ تولستوى ...!

[قمة من القمم الشوامخ في أدب هذه الدنيا قديمه وحديثه]

للأستاذ محمود الخفيف

غلام نابه



كان كلما اقترب ليو من إخوته سمعهم يتحدثون عن موسكو وعن الرحيل إلى موسكو فيرفع بصره إلى وجوههم يتبين هل ثمة فيها شيء من الهم لقرب هذا الرحيل ؛ فإن الهم ما يبرح يهجس في خاطره منذ أن علم بقرب انتقالهم إلى موسكو ؛ ولكن الغلام لا يجد في وجوههم أية أمارة لذلك الذي يعتلج في نفسه من الحزن كلما تطرق الحديث إلى موسكو أو كلما وقع بصره على ما يلمح إلى الرحيل أو يشير إليه ، ومن ذلك تلك السراويل الجديدة ذات الأشرطة الزاهية يقلبها إخوته بين أيديهم فرحين ؛ وإنه ليشاركهم فرحهم بها وما ينقم منها إلا أنها سوف تلبس في موسكو ؛ فما قريب يرحل مع إخوته ليتعلموا في تلك المدينة الكبيرة ؛ وإنه ليعجب كيف يطيقون الرحيل عن ياسنايا بوليانا فيتحدثون عن ذلك الرحيل ضاحكين مستبشرين ويقع الحديث من نفسه موقعاً أليماً .

وهل كان يطيق البعد عن ذلك القصر وعن تلك المدينة وعن هاتيك الغابات القريبة التي أحبها وألف المرح في أرجائها ؟ وهل كان يطيق البعد عن العمة تاتيانا وهو لا يجد له أماً غيرها ؟ ومن ذا يكون مربيه في موسكو مكان تيودور رويسل ؟ وهل هو واجد في موسكو ما يجده هنا من مسرات الحياة ولهوها ؟ أيطيق ألا يرى الخدم الذين أحبهم وأحبوه والخيل وكلاب الصيد التي أولع بها وأحب أن يراها كل يوم ؟ ولكن ما من الرحيل بد فليس له إلا أن يصبر عليه ... بهذا كان يتحدث الغلام إلى نفسه أو بهذا كانت تحدثه نفسه .

وحان يوم الرحيل ؛ ومسح الغلام عينيه وقد انطلقت به وبإخوته العربة إلى موسكو فما يجدر به أن يبكي وهو ابن ثمان ، وهؤلاء إخوته حوله لا يبكون بل لا يكترثون لشيء، كأنما هم ذاهبون كما كانوا يذهبون بالأمس إلى الصيد في الغابة !

ونظر الغلام في موسكو إلى مربيه الفرنسي الجديد سنت توماس فإذا هو تلقاء رجل لا يحس في وجهه ما كان يحسه في وجه تيودور رويسل من عطف ومحبة وإخلاص ، وما لبث أن وجده يعنف عليه كأشد ما يكون العنف ، فيحبسه في حجرة ويتهدده بالعصا ، الأمر الذي أغضبه أشد الغضب وكره إليه الغلظة والعنف ونفره من العقوبة البدنية ومن صور القسوة جميعاً طيلة حياته ؛ كتب بعد ذلك في مذكراته يشير إلى هذا الحادث فقال «حبسني سنت توماس أولا في حجرة ثم جاء يتهددني بالضرب بعصاه ، ولست أذكر الذنب ولكنه كان أمراً لا يستحق العقاب البتة ؛ وعندئذ ذقت شعوراً مخيفاً هو مزيج من الغضب والاحتقار والاشمئزاز ، ولم يكن ذلك نحو سنت توماس فحسب ، ولكن نحو القسوة التي يتهددني بها كذلك » .

وأكبر الظن أن مربيه ما فعل هذا إلا لإهماله وانصرافه عن الدرس ، وعناده إذا دعاه إلى العمل ؛ ولم يتجن عليه سنت توماس فهذا أحد لداته قد تحدث عنه وعن إخوته فقال : « يرغب نيقولا في التعلم ويقدر عليه ، ويقدر سيرجي على العلم ولكنه لا يميل إليه ، ويميل ديمتري ولكنه لا يقدر ، أما ليو فأنه لا يميل ولا يقدر » ولكن مربيه على الرغم من ذلك موقن من ذكائه ومن موهبة فيه عبر عنها بقوله « إن لهذا الغلام رأساً ... إنه موليير صغير » .

وماذا كان في رأسه يومئذ حتى يسميه مربيه هذا الاسم ؟ لعل مرد ذلك إلى نفاذ عينيه إلى ما تقعان عليه ، ونفاذ بصيرته إلى أفعال إخوته ولداته من التلاميذ وتفطنه إلى خصائص كل منهم ، فالغلام على حداثته يقظ مرهف الحس ، دقيق الملاحظة للناس وللأشياء جميعاً .

وهو وإن لم يتجاوز الثامنة بعد ، تطوف بقلبه النفس عاطفة

الحب ، ولم يكن هذا الحب الجديد كذلك الذى يحسه نحو العمة تاتيانا أو نحو غيرها ممن أولوه مودتهم وعطفهم من أفراد الأسرة ومن الخدم ، وإنما كان حباً كذلك الحب الذى قلما خلا منه قلب فتى أو فتاة فى ربيع العمر ؛ ويميل بعض علماء النفس إلى عد هذه العاطفة فى مثل هذه السن الباكرة دليلا على الموهبة الفنية ، ولذلك يرجى لصاحبها أن يكون فى غده من الأفذاذ ...

أحب ليو تلك البنت الصغيرة التى عاشت بين أفراد الأسرة فى كنف عميدها الكونت وكانت تسمى اسلنيف ، وأحب فى موسكو غلاماً صغيراً من أبناء عمومته من آل بوشكين ، وقد بلغ من حبه إياه أنه كان ينعقد لسانه إذا وجد نفسه تلقاءه من فرط إحساسه بعاطفته ؛ وكذلك أحب بنتاً لا تكبره فى العمر جميلة زرقاء العينين تدعى سونشكا ، وكان يشعر بين يديها بفيض من السرور والمودة والرفق ، فإذا غابت فإن ذكر اسمها كان يملأ مقلتيه بدموع الفرح من فرط نشوته ، وكانت عاطفته نحوها عميقة بالغة العمق صادقة خالصة الصدق بريئة من كل شائبة أو غرض ، حتى لقد اتخذها فى مستقبل أيامه مقياساً يرجع إليه إذا شاء أن يقارن بين حالات شعوره ...

أما اسلنيف فكان يغار عليها كأشد ما تكون الغيرة ، لا يطيق أن تحدث شخصاً غيره كبيراً كان أو صغيراً أو تتجه حتى بنظرها إليه ، وكان يعسف عليها ويعصف فى وجهها إذا وجد منها ما يظنه ميلا إلى غيره حتى إنه دفعها مرة من شرفة حيث كانا يلعبان وقد بلغت بها الجراءة أن كلمت غلاماً أمامه فسقطت ولحق بها العرج من جراء ذلك بضع سنين ، وبعد قرابة ربع قرن من هذا الحادث شاءت الأقدار أن يتزوج ليو من ابنة هذه التى غدت سيدة أنجبت بنات وبنين ، وأصبحت أم زوجته فقالت له ضاحكة تذكره بذلك الحادث « أكبر الظن أنك دفعتنى من الشرفة إبان طفولتى لكى تتزوج بابنتى فيما بعد » .

وذاق الغلام فى موسكو لوعة الحزن كما ذاق فرحة الحب ، فقد مات أبوه وكان فى طريقه إلى مدينة تولا فى صيف سنة ١٨٣٧ وسقط فى الطريق جسما لا حراك به ، فمن قائل إنه مات بنوبة من نوبات القلب ، وآخرون يهمسون أن السم أودى به على يد فلاح ممن ملكت يداه ؛ ويتسلط على رأس الغلام خيال عجيب فهو يحسب أن أباه حى لم يمت ولا يستطيع أن يتصور أنه مات حقاً على الرغم من أن أخاه نيقولا قد شهد دفنه فى ياسنايا بوليانا ؛ وإنه لينقل بصره بين وجوه المارة فى شوارع موسكو يتوقع أن تقع عيناه على أبيه ، وظل هذا الخيال بضعة أشهر متسلطاً عليه .

ويتفكر الغلام مرة ثانية فى الموت والحياة ، فقد تفكر فى ذلك حين أدرك أن عمته تاتيانا ليست أمه وعلم من نيقولا بموت أمه ؛ ولقد أحس يومئذ أن الموت شىء كريه مخيف ، ولكنه لم يدرك كنهه ، وهو كذلك يحس اليوم مثلما أحس بالأمس ، وإن كان يصحب إحساسه هذه المرة شىء من التفكير والدهشة ، وسيظل هذا شأنه كلما نظر فى الموت حتى يجاوز الثمانين من عمره فيطويه ذلك الشىء الكريه المخيف وهو لم يعد من طول النظر فى أمره بشىء .

ولم تكد تمضى تسعة أشهر على وفاة أبيه حتى ماتت جدته محزونة على ابنها ؛ وجاء المربى يحمل النبأ إلى الصبية وهم يلعبون ، فانقلب مرحهم وزياطهم وجوماً وسكوناً ، وأرهف ليو أذنيه ودار بعينيه يسمع ويرى ، فكم كره مرأى الحانوطية على مقربة من البيت فى ملابسهم السوداء ، وكم بث فى نفسه الخوف رؤية التابوت بين أيديهم ووجوههم كئيبة عابسة من أثر ما يتكلفونه من الحزن ؛ على أنه يطيب نفساً بما يشاهد من مظاهر العطف عليه وعلى إخوته وبما يسمع من عبارات الرثاء لهم والإشفاق عليهم وإن كان ذلك يزيد إحساسه باليتم ؛ ولقد نديت عيناه ذات مرة متأثرة بكلمة عطف سمعها من سيدة إذ قالت لجارتها « إنهم اليوم أيتام كل اليتم فقد مات أبوهم منذ قليل ، وهاهى ذى جدتهم كذلك يأخذها الموت » .

وينظر الصبى إلى حلته السوداء المخططة الحواشى بخيوط بيضاء وهو يرتديها حداداً على فقد جدته وقد صنعت لهذا الغرض خاصة ويعجبه منظره فى هذه الحلة فينسى بعض ما يمسه من حزن .

وللغلام فى هذه السن الباكرة اشتغال بما يعد الاشتغال به من أعجب الأمور ممن كان فى مثل سنه ، وذلك هو نظره فى الدين ومسائله ، واندفع تولستوى نفسه يتحدث عن ذلك قال فى مستهل كتابه « اعترافاتى » إنى أذكر كيف زارنا ذات يوم من أيام الآحاد فى الحادية عشرة من عمرى غلام يدعى فالرمير موليتين كان فى إحدى المدارس الابتدائية وراح يقص علينا ما سماه أحدث الطرائف من الأنباء ألا وهو كشف اتفق وقوعه فى مدرسته ، ومؤدى ذلك الكشف أنه ليس لهذا العالم إله ، وأن كل ما لُقناه عنه إن هو إلا محض اختراع . وإنى لأذكر مبلغ ما داخل إخوتى

من سرور عند سماع ذلك ، لقد دعونى إلى مجالسهم وأذكر أننا جميعاً شمرنا شعور النشوة لهذه الأنباء ، وتلقيناها كأمر سار ممتع ممكن الحدوث كل الأمكان » .

وعرف الغلام منذ حداثته بقوته البدنية وحيويته المتوثبة ، تبين ذلك من حادثة تقصها أخته ومؤداها أن أخاها نزل من إحدى العربات ذات مرة وقد توقفت عن السير لأمر ما فظل ماشياً حتى أوشكت العربة أن تدركه فأخذ يعدو عدواً سريعاً كيلا تدركه وإخوته فى العربة يعجبون من سرعة عدوه وطول نفسه ؛ ولم ينقطع نفسه إلا بعد ميلين فصعد إلى العربة وهو يلهث ولكنه يحاول أن يخفى تعبه ؛ ولسوف تلازمه هذه القوة البدنية وهذه الحيوية على الرغم مما ينتابه أحياناً من أسقام وآلام حتى يطويه الموت بعد أن يجاوز الثمانين .

وكان ليو منذ صغره مولعاً بركوب الخيل ، وقد تعلم الركوب فى سن مبكرة على الرغم من معارضة أمه إياه فى ذلك ؛ وقد رأى أخويه اللذين يكبرانه يمتطيان جواديهما ذات يوم فما زال يلح حتى سمح له بأن يمتطى جواداً كما فعلا فإذا به بعد خطوات فوق عرفه يطوق عنقه بساقيه ويمسك بجبهته ، فلما أعيد إلى حيث كان لم يبد عليه شىء من الخوف وصمم على أن يطلق العنان لجواده وانطلق به يعدو وهو ثابت فوق صهوته ومن ذلك الوقت أصبح يجيد الركوب .

وفكر الغلام ذات يوم فى أمر : لم لا يطير كما تفعل الطير ؟ لم لا يضع ذلك موضع التجربة ؟ إنه يرى أنه مستطيع بحركة ما أن يثب طائراً فيسبح فى الجو كما تسبح الطير ؛ وإن فى نفسه منذ صغره ميلاً إلى أن يضع ما يهجس فى خاطره موضع الاختبار ، ولسوف يكبر معه هذا الميل فيظهر فى مواطن كثيرة ؛ ويشد الغلام بيديه حول ركبتيه ثم يثب من نافذة يريد أن يطير ولكنه يصحو بعد ثمان عشرة ساعة قضاها فى سبات عميق فيفتح عينيه دهشاً متحيراً يحاول أن يذكر ماذا كان من أمر طيرانه فيذكره ما يحس من ألم من مفاصله وأضلاعه .

ولم يقتصر شذوذه على هذا الحادث ، وأكثر ما كان من شذوذه ما كان يتصل باهتمامه بهيئته ، ومن ذلك أنه حلق شعره ذات مرة بالموسى لعل فى ذلك إصلاحاً لشكله ثم عاد فأطلق شعره حتى استطال ، وعمد إلى المشط فجمل به ذلك الشعر فى موضع خاص لعل فى ذلك أيضاً ما يكسبه وجاهة وليظهره فى هيئة المهموم المفكر على نحو ما يظهر بيرون . وعمد مرة أخرى إلى حاجبيه فانتزع شعرهما بملقط كى يشتد بعد ذلك نماؤه فيكسب ملامحه مظهراً عاطفياً شعرياً ، ولكنه لم يرجع من وراء هذا كله بطائل الأمر الذى تنغص عنده العيش .

ولقد جاء فى كتابه « عهد الطفولة » قوله « كنت أعلم حق العلم أنى لم أك حسن المنظر ، ولذلك كانت كل إشارة إلى هيئتى تسىء إلى إساءة مؤلمة ، ولقد مرت بى لحظات تملكنى فيها اليأس وخيل إلى أنه لا يمكن أن تتهيأ السعادة على هذه الأرض لمن كان له أنف كأنف العريض وشفتان كشفتى الغليظتين وعينين كعينى الصغيرتين الشهباوين ، وسألت الله أن يحدث معجزة فيجعلنى وجيهاً فأنى لأجود بكل ما هو لدى وبكل ما عسى أن أظفر به فى المستقبل فى سبيل وجه حسن » .

وفى صيف ١٨٣٩ شاهد الغلام فى موسكو مشهداً استقر فى نفسه فلم يبرحها حتى ظهر أثره فى أحد أوصافه فيما بعد فى قصته الكبرى « الحرب والسلم » إذ وصف موكباً من مواكب الاسكندر الأول على لسان روستوف أحد شخصيات تلك القصة ، أما المشهد الذى رآه الغلام وجعله مثاله فيما كتب من وصف فهو موكب نيقولا الأول يوم زار موسكو ليضع الحجر الأول فى بناء كنيسة أقيمت لتخليد ذكرى تحرير روسيا من غزو نابليون .

ولم يطل بالغلام المقام فى موسكو فقد أعيد مع أخيه الصغير إلى ياسنايا بوليانا ليكونا فى رعاية العمة تاتيانا ، وبقى الأخوان الكبيران فى موسكو ترعاهما الكونتس أوستن سيكن عمتهما على الحقيقة ؛ وكانت الكونتس أوستن أو عمتهما ألين امرأة تقية صالحة لله فى السر والعلن وتنفق مالها فى سبيل الله فلا ترد فقيراً ولا تتنكر لذى حاجة ، وكانت بالخدم رحيمة عطوفاً تكره أن توقظهن إذا آوين إلى مضاجعهن فتعمل عملهن فيما تريد لنفسها من حاجة ؛ وكان أثرها عميقاً فى نفس الغلام فكان يشعر نحوها من الأجلال والأكبار بقدر ما كان يشعر نحو عمته تاتيانا من المحبة ، ولئن علمته العمة تاتيانا كيف تكون بهجة النفس فى الحب فقد أوحت إليه ألين كيف تسمو النفس وكيف تطيب بالدين

ولكن هذه العمة قضت نحبها فى خريف عام ١٨٤١ فصارت الوصاية على الأخوة جميعاً لعمة أخرى هى السيدة يوشكوف زوجة أحد ذوى الثراء من الملاك فى قازان ، وثم فقد نقل الصبية جميعاً إلى قازان فأقاموا هناك حتى ربيع ١٨٤٧ ؛ على أنهم كانوا يقضون أجازاتهم الصيفية فى ضيعتهم المحبوبة بناحية ياسنايا بوليانا .

(يتبع) الخفيف

نقل الأديب

للأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي

٨٦٨ — العلم غنى بلا مال

مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن قيم الجوزية :

قال أبو جعفر الطحاوى : كنت عند أحمد بن أبى عمران ، فمر بنا رجل من بنى الدنيا ، فنظرت إليه وشغلت به عما كنت فيه من المذاكرة ، فقال لى : كأنى بك قد فكرت فيما أعطى هذا الرجل من الدنيا .

قلت له : نعم .

قال : هل أدلك على خلة ، هل لك أن يحول الله إليك ما عنده من المال ، ويحول إليه ما عندك من العلم فتعيش أنت غنياً جاهلا ، ويعيش هو عالماً فقيراً .

فقلت : ما أختار أن يحول الله ما عندى من العلم إلى ما عنده ، فالعلم غنى بلا مال ، وعز بلا عشيرة ، وسلطان بلا رجال .

* * *

يقول الفقير إلى الله تعالى والغنىّ عن الناس محمد إسعاف النشاشيبي :

يأمل آملون أن لن يكون بعد حين مترف مسرف نزهى ، ولا بائس فاضل يشكو .

« وقالوا قسمة نزلت بعـدل
فقلنا ليتـه جور مشاع »

فقد تتبدل أحوال ، وتؤول أمور خير مآل ، ويصـدق قول من قال :

« دوام حال من قضايا المحال
واللطف مرجو على كل حال »

وبالدساتير المسنونة — يا أخا العرب — يقف واقفون ، ويمشى القهقرى أو اليقدمية ماشون . إنها الشرائع إنها الدساتير تشق الأنام وتسعد ، فارجونّ ولا تيأس من روح الله وعدله وتقدم هذا الإنسان « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وفى (الكتاب) : « لكل أجل كتاب » .

قال جار الله فى (الكشاف) عند تفسير هذا القول الكريم العظيم :

« الشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ، فلكل وقت حكم يكتب على العباد أى يفرض عليهم على مايقتضيه استصلاحهم » .

وقال فى موضع آخر من كشافه :

« الله (تعالى) ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة . والله (تعالى) عالم بالمصالح والمفاسد فيثبت ما يشاء ، وينسخ ما يشاء بحكمته » .

٨٦٩ — أثر البيئة

الحيوان للجاحظ : ... لا ننكر أن يفسد الهواء فى ناحية من النواحى فيفسد ماؤهم ، وتفسد تربتهم ، فيعمل ذلك فى طباعهم على الأيام ... وقد رأينا العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من جميع تلك المعانى . وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الابل والدواب وجميع ماشيتهم من سبع وبهيمة على طبائعهم . وترى جراد البقول والرياحين وديدانها خضراء[2] وتراها فى غير الخضرة على غير ذلك .. وقد نرى حرة بنى سلَيم وما اشتملت عليه من إنسان وسبع وبهيمة وطائر وحشرة فتراها كلها سـوداء[2] وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد

(١) و (٢) نعتوا الاسم المجموع بفعلاء وفعل ، وليس فى كلام المبرد فى الكامل ما يدل على منع النعت بالمفرد — كما ظن فقيد العربية الأستاذ الرافعى ، وحى القلم ج ١ ص ٢٨٣ — وهذا قول الكامل : « ما كان من باب أفعل فجمعه على أفاعل ... فإن كان نعتاً فجمعه على فعل ... فإن أردت نعتاً محضاً يتبع المنعوت قلت مررت بثياب سود وبخيل دهم » وأول من خطأ ناعتى الجمع بالمفرد — كما ذكر الأديب اللغوى المشهور الدكتور مصطفى جواد — هو العربانى (المستشرق) فريتس كرنكو الألمانى ، وأول من دل على مظنة القول فى الكامل هو الدكتور جواد . والذى هو فى (الكامل) مثل الذى هو فى (الكتاب) : « وأما أفعل إذا كان صفة فإنه يكسر على فعل ... والمؤنث من هذا يجمع على فعل ... »

أدركوا رجالا من نبط بيسان(١) ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل وإلا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب(٢) طوال الأذناب . وربما رأينا الملاح النبطى على وجهه شبه القرد ، وربما رأينا الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ(٣) إلا القليل . وقد يجوز أن يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً فى صفة هؤلاء المغربيين والأنباط ويكونون جهالا فلا يرتحلون ضنانة بمساكنهم وأوطانهم ولا ينتقلون ، فإذا طال ذلك عليهم زاد فى تلك الشعور وفى تلك الأذناب وفى تلك الألوان الشقر وفى تلك الصور المناسبة للقرود .

٨٧٠ — ويبيع قرطيها إذا ما أعدما

تتمة اليتيمة : قد أكثر الشعراء فى الحث على الاضطراب فى الاغتراب لالتماس الرزق وقضاء الوطر من السفر ، ومن أشف ما قالوا فيه وأشفاه قول هذا الاعرابى الشامى (أبى شرحبيل الكندى) :

سر فى بلاد الله والتمس الغنى ... ودع الجلوس مع العيال مخيما

لا خير فى حر يجالس حرة ... ويبيع قرطيها إذا ما أعدما

٨٧١ — ما أقل الروم وأكثر المسلمين !

تاريخ الطبرى : شهد اليرموك ألف رجل ، من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيهم نحو من مئة من أهل بدر ، وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس فيقول : اللهَ اللهَ ، إنكم ذادة العرب وأنصار الاسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك ، اللهم إن هذا يوم من أيامك ، اللهم ، أنزل نصرك على عبادك . وقال رجل لخالد : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين ! إن الجنود تكثر بالنصر ، وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال(٤) .

(١) فى العراق .

(٢) العجوب جمع العجب — بالفتح والضم — أصل الذنب وعظمه ، وهو العصعص .

(٣) القاموس : مسخ صورته حوله إلى أخرى أقبح ، ومسخه الله قرداً فهو مسخ ومسيخ ، وفى الأساس : فلان مسخ من المسوخ .

(٤) فى تاريخ الطبرى ... عن أبى أمامة وكان شهد اليرموك هو وعبادة بن الصامت أن النساء قاتلن يوم اليرموك فخرجت جويرية ابنة أبى سفيان فى جولة وكانت مع زوجها بعد قتال شديد ، وأصيبت يومئذ عين أبى سفيان فأخرج السهم من عينه أبو حثمة .

٨٧٢ — نعم ، بلى

نزهة الألباء فى طبقات الأدباء لأبى البركات الانبارى :

يحكى أن أبا بكر بن الانبارى حضر مع جماعة من العدول ليشهدوا على إقرار رجل ، فقال أحدهم للمشهود عليه :

ألا نشهد عليك ؟

قال : نعم .

فشهد عليه الجماعة وامتنع ابن الانبارى وقال : إن الرجل منع أن يشهد عليه بقوله : نعم(١) ، لأن تقدير جوابه لا تشهدوا على ، لأن حكم نعم أن يرفع الاستفهام ، ولهذا قال ابن عباس فى قوله تعالى : [ألست بربكم قالوا بلى] لو أنهم قالوا : نعم لكفروا لأن حكم نعم أن يرفع الاستفهام ، فلو قالوا : نعم لكان التقدير نعم لست ربنا ، وهذا كفر ، وإنما دل على إيمانهم قولهم : بلى ، لأن معناها يدل على وقع النفى ، فكأنهم قالوا : أنت ربنا ، لأن أنت بمنزلة التاء التى فى لست .

٨٧٣ — مخيريق خير يهود

سيرة النبى لعبد الملك بن هشام :

كان مخيريق أحد بنى ثعلبة بن الفطيون حبراً عالماً ، وكان غنياً كثير الأموال من النخل ، وكان يعرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بصفته وما يجده فى علمه ، وغلب عليه إلف دينه ، فلم يزل على ذلك ، حتى إذا كان يوم أحد — وكان يوم أحد يوم السبت — قال يا معشر يهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق ، قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم ، ثم أخذ سلاحه فخرج حتى أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه بأحد ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فأموالى لمحمد يصنع فيها ما أراه الله ، فلما اقتتل الناس قاتل حتى قتل ، فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بلغنى يقول : [مخيريق خير يهود] وقبض رسول الله أمواله ، فعامة صدقات رسول الله بالمدينة منها .

(١) فى المغنى : ... ولذلك قال جماعة من الفقهاء لو قال : أليس لى عليك ألف ؟ فقال : بلى لزمته ، ولو قال نعم لم تلزمه . وقال آخرون : يلزمه فيهما وجروا فى ذلك على مقتضى العرف لا اللغة ... بل لايجاب بها عن الايجاب وذلك متفق عليه . ولكن وقع فى كتب الحديث ما يقتضى أنها يجاب بها الاستفهام المجرد ... وليس لهؤلاء أن يحتجوا بذلك لأنه قليل .

صرخة من عيون الشعر في آذان المسلمين ؟

في حـــيرة البيد ...

[بمناسبة المولد النبوي]

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قد اهتدت بك في البادين صحراء ... فرقٌ في صفحتيها الظل والماء
تلك الهواجر في البيداء محرقة ... كأنها شـــعلة بالنـــار حمراء
لا تستقر على خـــير ضمائرها ... ولا ترف لهـــا بالنور سيماء
سبيلهم كلها بالشـــوك عاثرة ... وأرضهم كلها صخر وحصباء
حار الأدلاء فيها وهي موحشة ... فضلٌ وأدّ الضحى فيها الأدلاء
للشرك فيهـــا ترانيم مضللة ... وللطواغيت صيحات وأصداء
كأنهن نعيب البـــوم في وطن ... تهدمت فيه أركانـــ وأرجاء
الليل في البيد مرهوب جوانبه ... والصبح مثل الدجى ريح وأنواء
في أمـــة قـــد أقام الله ألسنها ... لـكنها عن جلال الحق خرساء
يا عاكفين على الأوثان مظلمة ... هل عندكم من جميل الصبح أنباء؟

الركب في البيد قد ضلت مسالكهم
فـكلهم فِرَق فيـــه وأهـــواء
هم ظامئون إلى ماء وأين لهم ... وفي السراب ضلالات وإغواء
هم واردون إلى وهم إذا ظمئوا ... وصادرون عن الرمضاء إن فاءوا
جاءوا وراحوا فمـــا قرت رواحلهم
هل ترحم البيد من راحوا ومن جاءوا ؟؟

تلك البلاقع من ندّى حواشيها ... فأصبحت وهي للبادين خضراء؟
فيهن للجائع المحروم منتجع ... خصب وللظامىء الصديان إرواء
بان الطريق على السارين مؤتلقاً ... كأنما ضوأت بالوحى « سيناء »
يا هائمين على الصحراء منفـــرة
لا تجزعوا ! ! إن أرض الوحى صحراء !

تلك المهامه في البيـــداء قد خضرت
وأخصبت صفحتـــاها وهي جرداء
من فجر المـــاء فيها وهي مجدبة ... وأنبت الروض فيها وهي صماء؟
ومن طوى الريح منها وهي عاصفة
ونفّس الصبح فيهـــا وهي ظلماء ؟

يا بانيا فوق أصنام مهدمـــة ... لا بدع إنك هـــدام وبناء
قد كان للهدم والإنشاء مولدكم ... وإنما المجـــد تهديم وإنشاء
قر الحيارى على كفيك وانتظموا ... وحُررت بك في البيد الأرقاء
وأغليت قيمة الإنسان في زمن ... ما كان فيـــه لـعمر المرء إغلاء

هاجرت لله في أرض منـــورة ... لـــا جفاك على الأرض الأوداء
وقد يكون من الأدنين من بعدوا
فـــلا تصح لهـــم قربى وإدناء

المسلمون حيارى اليوم في زمن ... لا تنفع النفس فيه وهي عزلاء
سبيلهم فيـــه يا مولاى عاثرة ... بهم ، وخطتهم في الحق عوجاء
فلا تبين لهم في الجـــو معلمة ... ولا تلوح لهم في الأفق أضواء
لهم يد عن بنـــاء المجد عاجزة ... وأرجل عن سبيل الحق عرجاء
فهـــل لهم أســـوة فيما نهضت به
وهل لهم في « ابن عبد الله » إيحاء ؟؟

الأدب والفن في أسبوع

مؤتمراتنا الثقافية

وافقت وزارة الخارجية اللبنانية على ما قررته اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية من عقد مؤتمر ثقافي بلبنان في فصل الصيف المقبل ، وهذا هو المؤتمر الثاني من نوعه ، فقد سبق أن عقد المؤتمر الأول بدمشق في العام الماضي على ما أذكر .

وكذلك وافقت الحكومة اللبنانية على عقد مؤتمر الصحافة العربية بلبنان في الصيف المقبل على أن تتكفل بنفقات المؤتمر والمؤتمرين .

والذي يعنينا من هذا أن نسجل هذه الظاهرة الطيبة التي تؤدي إلى توثيق التعاون الثقافي بين الأقطار العربية ، وإذا ضممنا إلى هذا ما يجري كل عام من عقد مؤتمر عربي للمحامين ، وآخر للأطباء ازداد تقديرنا لهذه الظاهرة الطيبة ، وتفاءلنا بذلك الشعور العميم الذي هو ثمرة من ثمرات اليقظة الفكرية ، ودعامة من دعامات الجامعة العربية . فإن اللغة العربية لاشك أقوى مقومات الجنسية العربية ، وهي الأساس لما يتفرع عنها من مقومات الدين والتقاليد والتاريخ والاختلاط بين أبناء العروبة في شتى الأقطار ، ونحن إذ نبارك هذه المؤتمرات ونحث على التوسع فيها نرجو أن تكون سريعة الأثر والتأثير ، وأن لا تطاول الزمن فيما تهدف إليه من المقاصد والغايات ، وأن لا تتناول الأمور على الوضع الذي يجري في اللجان الحكومية ، فإننا كما هو معلوم في عصر السرعة الخاطفة ، فلا سبيل إلى السير إلا بالقفز والتوثب ، والجرأة والإقدام . .

في ذكرى الأفغاني

منذ شهرين أهبنا بأبناء الشرق العربي ورجال الجامعة العربية أن ينهضوا للاحتفال بذكرى باعث الشرق المغفور له السيد جمال الدين الأفغاني بمناسبة مرور خمسين عاماً على وفاته ، وقلنا إن أقل ما يجب في هذا الشأن أن يحتشد أبناء الشرق العربي في إقامة مهرجان لذلك الرجل يستمر أسبوعاً على أن تتولى رعاية هذا المهرجان الجامعة العربية وتشارك فيه سائر الجمعيات العلمية والهيئات الثقافية . قلنا هذا منذ شهرين ولم يبق على يوم الذكرى إلا أيام ، وكل ما تحركت له الهمم أن تألفت لجنة من حضرات السادة : محمد علي علوبة باشا والدكتور عبد الوهاب عزام بك والشيخ محمود شلتوت ومحمد صلاح الدين بك وعزيز خانكي واسماعيل مظهر ومحمد خالد للاحتفال بهذه الذكرى ، على أن هذه اللجنة لم تحدد برنامجها بعد .

ونحن إذ نشكر لهؤلاء السادة غيرتهم ووفاءهم نعود فنسأل: وأين الجامعة العربية ، وأين الأزهر ، وأين جامعتا فؤاد وفاروق ، وأين جمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الإخوان المسلمين ، وأين المجمع العلمي العربي في دمشق والجماعات التي لولا الأفغاني لما كانت ولما تيقظت الضمائر لإقامتها إلى اليوم ؟!

إن الشرق العربي في موقف هو أشد ما يكون حاجة فيه إلى التذكير بالأفغاني وبتعاليمه في الحرية والإباء والنضال عن الكرامة ، ونحن إذ نذكر الأفغاني لا نكبره ، فقد استوفى مكانته من تقدير التاريخ ، ولكنا نكبر أنفسنا ، وندل على أننا أوفياء نقدر الجميل لصاحبه ، ونعرف فضل آبائنا فيما أسدوا إلينا وأجدوا علينا .

وأسفاه ! لقد كانت آخر صيحة للافغاني في حياته تلك الصيحة الأليمة اليائسة إذ يقول : « إن المسلمين قد سقطت هممهم ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم ، وهو شهواتهم » . فهل لا تزال هذه الصيحة كلمة حق ، وهل لنا أن نلقي بها في وجه أولئك الجاحدين الناسين ، إنناء والله نرجو أن لا يكون ذلك .

لغة ... وأسلوب !

طالعت هذا الأسبوع في مجلة أدبية تصدر في بيروت مقالا لأديب بعنوان « عودة بتهوفن » استهله بقوله :

« عند الشاطيء المنتاج ، وفي المنحنى البعيد ، وخلف تلك الخواطر والخيالات ... أصابع بتهوفن ... »

« في عيون سمار الليالي ، ومهج السكارى الشاعرين ، وحلق المصافير ، وبحات النهور ، وندب القصب . اختلاجات ودوسات بتهوفن ... » .

« في حرير النسمات ، ومجاري العبرات ، يقطن بتهوفن ليستحم في كل عين ويجفف جسمه في كل جفن ورمش ... »

والمقال كله من هذا القبيل ، حروف عربية وكلمات عربية أيضاً ، ولكنك لا شك حائر معي في فهم هذه اللغة وفقه هذا الأسلوب .

وأنا رجل والحمد لله قد درست العربية ، ووقفت عليها حياتي ، واستوفيت ما كتبه علماء البلاغة والنقد في فهم الأساليب ، وإدراك أسرارها ، ولكني أشهد الله عاجز كل العجز عن فهم هذا الأسلوب المعجز ، الذي لا أول له يعرف ، ولا آخر له يوصف ... فياضيعة العمر والجهد ، إذ أجدني بعد طول ما بذلت وأفنيت عاجزاً عن فهم مقال في صحيفة أدبية ...

ولا أكتم القارئ أني سألت صديقاً لبقاً أن يعينني على فهم هذا الأسلوب ، فقال لي الصديق الماكر : حسبك يا أخي فإنه أسلوب الصم البكم ، وفيه ما يسميه البلاغيون « براعة النظير » فقد كان بهوفن على ما يروون أصم وكانت كل عبقريته في اللحن ، فكان من براعة الكاتب أن تحدث عنه بهذا الأسلوب الأصم الملحون ...

هذا ما قاله الصديق والعهدة عليه ، ولكني والله ما زلت حائراً في فهم هذا الأسلوب « المعجز » الذي يكتب به إخواننا الذين يعيشون في « تل من الخواطر والخيالات » .

وآخر بريطاني !

في الأسبوعين الماضيين وصل إلى مصر مسيو ديهاميل الأديب الفرنسي الكبير كما عرف القراء مما كتبنا عنه وقام بإلقاء سلسلة من المحاضرات في الأحاديث عن الثقافة الفرنسية وما أدت من خدمات للشرق العربي ، ثم طار في نهاية الأسبوع الماضي إلى الجزائر لإتمام رحلته في أداء مهمته . وفي هذا الأسبوع وصل إلى مصر الأديب الإنجليزي الكبير مستر ريموند مورتا مر لإلقاء سلسلة من المحاضرات في القاهرة والاسكندرية وأسيوط عن الأدب في العصر الفكتوري ، وعن الرواية في الأدب الإنجليزي الحديث ، ويقولون إنه بعد أن يفرغ من أداء هذه المهمة سيطير هو الآخر إلى قبرص لإلقاء سلسلة محاضرات هناك . .

وأنا أعرف أن الأدب لا وطن له ، وأن مودة الفن والثقافة أكبر وأعظم من أن يحدها وضع جغرافي ، ولكني أعتقد أيضاً أن القارئ لا يطيق أن يلقي بالا لأديب بينفنه ويمقته ، ولا شك أن هؤلاء الدعاة الذين يتوافدون علينا لترجية الأحاديث الأدبية والثقافية يقدرون هذا ، ويقدرون أننا في موقف نضال عن حريتنا وكرامتنا التي يأبى الاستعمار الإنجليزي والفرنسي إلا تقييدها وإذلالها ، فليس من المعقول أن يطربنا الأديب الإنجليزي الكبير بأحاديث الأدب في العصر الفكتوري ، والرواية في الأدب الإنجليزي الحديث .. لأن أحاديث مستر بيفن الاستعمارية لم تترك لذلك مكاناً في قلوبنا وعواطفنا .

أجل ! لقد كنا نود أن نستمع لأحاديث الكاتب الإنجليزي الكبير ، ولكن الاستعمار الانجليزي قد سد آذاننا ، فليس الذنب ذنبنا .

« الجاحظ »



حول كتاب «الرسالة الخالدة»

بين معالى عبد الرحمن عزام باشا
والأســتاذ محمد بهجة الأثرى

[كان الأستاذ محمد بهجة الأثرى الأديب العراق قد بعث من بغداد إلى معالى عبد الرحمن عزام باشا برأى حول مسألة هامة وردت فى «الرسالة الخالدة» هى مسألة تصرف عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أرض السواد بالعراق تصرفاً جديداً وكانت الرواية التى اطلع عليها عزام باشا واستشهد بها لم تذكر جانباً تاريخياً هاماً في النظر إلى المسألة . ولذلك لما ذكرها له الأستاذ الأثرى فى كتاب خاص آثر أن يوجه النظر إليها بنشرها تعميماً لمعرفة الحقيقة وهذان هما كتابا الأستاذ الأثرى وتعقيب عزام باشا عليه] :

حضرة صاحب المعالى الجليل الصديق الكريم الأستاذ عبد الرحمن عزام باشا :

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فان توفيق الله إياك لكتابة (الرسالة الخالدة) تجلو بها «رسالة الله الواحدة الخالدة على الزمن» ، وتدعو العالم الجديد إلى الاقتباس من هداها فى الاجتماع والسياسة والحرب والسلم والعلاقات الدولية لإزالة أسباب الاضطراب العالمى وإمداد الحضارة بسند روحى وإقامة نظام عالمى جديد لنعمة من نعمه التى أسبغها سبحانه عليك وأنت لها أهل أراك خليقا بان تستزيدها بالشكر وتستديمها بالحمد والثناء ؛ ومظهر لما توسمته فيك من سمو الذات وجلال التفكير منذ سمعتك لأول مرة تخطب ليلة افتتاح المؤتمر الإسلامى العام تحت قبة المسجد الأقصى (ليلة ٢٧ رجب ١٣٥٠ م)، ثم لم تزدنى صلاتى بك من بعد فى القدس والقاهرة وبغداد إلا يقيناً بما توسمت وتفرست ، ووثوقاً بكرم العنصر الذى يتمثل فى شمائلك وأدبك وفضلك وفى علاقاتك الخاصة والعامة وفى مساعيك الجليلة فى سبيل العروبة والإسلام التى توجتها بتأليف هذه الرسالة الخالدة وجعلتها الطغرى فى جبينها الأبيض النقى النزيه . ومن أولى منك بأن تنبثق من ذهنه الوقاد هذه الفكرة السامية ، وتجول براعته فى أشرف ميدان من ميادين الأبحاث الجدية الرفيعة ، وأنت الشاغل لمقام أمانة جامعة الدولة العربية بجدارة واستحقاق ، وأنت السياسى الأمين والكاتب المفكر الذى تعلق ذهنه بالمثل العليا فاحتذاها وشغل نفسه بالدعوة إليها ، وأحب الخير فتمثله وسعى جهده لإيصاله إلى الناس فى صدق ونخوة وإخلاص ؟

إن كتابك – يا صديق الكريم – كتاب الموسم ، بل رسالة العصر ألم بحالة الشذوذ والاضطراب التى سادت العالم فى أثناء الحرب الأخيرة ، فكشف عن أسبابها وبواعثها ووصف لها العلاج الشافى بما وجده فى صميم رسالة الله الخالدة إلى رسله وأنبيائه وما انتهت إليه من أطوار الأنظمة العالية فى الشريعة المحمدية الغراء فى السياسة والاجتماع والحرب والسلم والعلاقات بين الدول والشعوب والطبقات والأفراد يعدها سند روحى لابد منه لعالم جديد متجه نحو دولة عالية واحدة تباركها يد الله ويرعاها رضاه على حد تعبير الرسالة .

وليس يعوزه لاستكمال أسباب فوائده وتعميمها حتى يتكون به رأى عالمى أو شبه عالمى إلا نقله ، بعد اجالة القلم فى بعض نواحيه إلى اللغات العالمية الغربية والشرقية ؛ ليتداوله أكبر عدد ممكن من القراء ، ويعيه من لا عهد له بموضوعه من المسلمين وغير المسلمين ، ولا يزال الخير فى الناس إلى يوم القيامة ، ولكن الدعاة العاملين إليه قليلون ، ولا أراك إلا فاعلا إن شاء الله .

وبعد فقد وقعت فى الكتاب على أمر أخالفك فيه كل المخالفة ولا إخالك إلا حريصاً على مكاشفتك به ثم جاداً فى إصلاحه إذا وقع منك موقع القبول .

ذلك أننى فى أثناء تصفحى السريع للكتاب مررت بجملة خطيرة تكررت على سبيل التوكيد ثلاث مرات فى صور متعددة ، وسرعان ما رأيت من آمن بها من الباحثين – بله عامة القراء – كصديقنا الفاضل الأستاذ عبد المنعم خلاف ، إذ أوردها فى عرضه للكتاب فى مجلة الرسالة (ع ٦٩٩ س ١٤ ص ١٣٢٢)

على سبيل الإقرار والتأييد والإعجاب ، وهى فى رأيى بعيدة عن الصواب ، وإقرارها يفتح منفذاً إلى الإسلام يهدمه من أصوله وأنت ياسيدى لا تريده بحال من الأحوال .

قلت فى (ص ١٢٨) : « وحيثما كان العدل فثم شرع الله ودينه ، فإذا فرض أن هذا العدل يقتضى أمراً لا نص فيه ولا أثر شرعياً فعليه أن يجتهد برأيه » .

هذا صحيح لا غبار عليه ، ولا جدال فيه ، ولـكنك لما مثلت له أتيت بمثال عملى لعمر بن الخطاب رضى الله عنه لم يكن مطابقاً لما قصدت له من التوضيح للقاعدة المذكورة ذلك هو عمله حين أريد على قسمة أرض السواد ، فأبى إلا بقاءها بأيدى أهلها ، وضرب عليها الخراج . لقد ذهبت إلى أنه عمل ذلك برأيه ، وترك ظاهر النص القرآنى (ص ١٢٩) ، ثم استحسنت منه هذا التصرف فى موضعين من بعد ، فقلت فى (ص ١٣٠) : « هذا مثل من تصرف تلميذ الرسول وخليفته فى أمر جاء به نص ، وهو نفسه يسلم بهذا النص ... » ، وقلت فى (ص ١٣١) : « وعليه فالدولة الإسلامية التى يكفل فيها الإمام التوازن الاجتماعى والتى تقوم على قوله تعالى : (وزنوا بالقسطاس المستقيم) والتى أخذ فيها برأى عمر رضى الله عنه فى ظرف ما وعُدل به عن ظاهر النص القرآنى عدولا مبرره المصلحة العامة ... » .

وهذه الأقوال ، على اختلاف صورها ، تتضمن أشياء منها مايتعلق بالقاعدة المذكورة فى ص ١٢٨ ، ومنها مايتعلق بشخص عمر ومواقفه من النصوص الشرعية ، ومنها ما يتعلق بالمصلحة المرسلة والتحسين والتقبيح العقليين ، ومنها ما يتعلق بحقيقة المثال وكيفية تصرف عمر فى المسألة : هَلْ هو ضمن النص أولا . وإنى ذاكرها على الوجه الذى أراه تبياناً للحق فى هذه المسائل ووضماً له فى نصابه منها .

فأما مايتعلق بالقاعدة ، فهذه المسألة على الوجه الذى ذكرته أو على حقيقتها التى سأوردها ، لا تنطبق عليها ؛ لأن القاعدة هى إباحة الاجتهاد للامام فى أمر يقتضيه العدل لا نص فيه ولا أثر شرعياً ، والمثال إنما هو فى أمر جاء به نص من كتاب الله ، ولـكن الإمام فيما ترى تصرف به خلافه وهو نفسه يسلم بهذا النص ! فالقاعدة شىء ، والمثال شىء آخر ، ولا صلة جامعة بينهما

وأما ما يتعلق بتصرف عمر رضى الله عنه فى أمر جاء به نص فى كتاب الله ، وتركه هذا النص وعدوله عنه إلى رأيه ، كائنة ما كانت أسبابه ، فأقول : إن هذا لأمر إدٌّ منكر ينزه عمر منه ، وقد أجمع المسلمون على أنه لا اجتهاد فى مورد النص ، وإنه ليفتح منفذاً إلى الإسلام يهدمه من قواعده ، ويجعل القرآن مهجوراً ، وحينئذ تبطل الحاجة إليه وإلى الدعوة إلى اتخاذه أساساً للعالم الجديد المنشود . وهذا الرأى فيما أرى يرجع فى حقيقته إلى مذهب أهل التحسين والتقبيح العقليين ، ومحصول مذهبهم كما قال الشاطبى تحكيم عقول الرجال دون الشرع ، وهو أصل من الأصول التى بنى عليها أهل الابتداع فى الدين ، بحيث أن الشرع إن وافق آراءهم قبلوه ، وإلا ردوه .

وأنا أجلك يا سيدى من تصور ذلك فضلا عن إرادته . وإنما التبس الأمر فى الموضوع بين المصلحة المرسلة الشرعية والتحسين والتقبيح العقليين ، فكان هذا الذى تراه من القول ، وهو قول ينبغى تحريره فى ضوء القاعدة المذكورة فى ص ١٢٨ ومباحث المصلحة المرسلة التى تبسطت فيها كتب أصول الفقه ونحوها ، ومن أحسن ما قرأته فيها ما كتبه الشاطبى رحمه الله فى كتاب الاعتصام ، وهو مطبوع بمطبعة المنار بمصر . وفى هذا الكتاب يقول الشاطبى : « إن تحكيم الرجال من غير التفات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعى المطلوب شرعاً ، ضلال ... وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غيره » . وضرب لذلك أمثلة من وقوف كبار الصحابة فيما يعرض لهم من النوازل عند حدود النصوص ، وإذعانهم لطاعة الله ورسوله دون أن يعبأوا برأى من رأى غير ذلك ، منها مسألة السقيفة ، وقتال مانعى الزكاة ، وبعث أسامة . ومن هؤلاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد كان من أكثر القوم انصياعاً إلى نصوص القرآن وأشدهم طاعة لرسول الله ، بذلك عرف واستفاضت عنه الروايات ، حتى وصفوه بأنه « كان وقافاً عند كتاب الله » .

ففى الصحيح عن أبى وائل قال : جلست إلى شيبة فى هذا المسجد قال : جلس إلى عمر فى مجلسك هذا قال : هممت أن لا أدع صفراء ولا بيضاء إلا قسمتها بين المسلمين ؛ قلت : ما أنت بفاعل . قال : لم ؟ قلت : لم يفعله صاحباك . قال : هما المرآن أقتدى بهما — يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضى الله عنه

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى حديث عيينة بن حصن حين استؤذن له على عمر ، قال فيه . فلما دخل ، قال : يا ابن الخطاب ! والله ما تعطينا الجزل ، وما تحكم بيننا بالعدل . فغضب

عمر حتى هم بأن يقع فيه ، فقال الحر بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله قال لنبيه عليه السلام (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) . فوالله ما جاوز عمر حين تلاها عليه ، وكان وقافاً عند كتاب الله .

إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة عن وقوفه عند الكتاب والسنة ، مما لا أريد أن أثقل على طبعك بروايته ، وفيما سأورده من القول فى حقيقة مسألة تقسيم السواد نفسها مثال آخر أيضاً من أمثلة التزامه حدود كتاب الله ؛ لعلمه أن ما جاء به القرآن هو العدل المطلق الذى لا يعقل أن يكون وراءه عنده أو عند أى إنسان آخر عدل أسمى منه بحيث يسوغ له أن يعدل به عن ظاهر النص القرآنى أو يتركه لأجله وهو نفسه يسلم بالنص !!

وأما حقيقة مسألة السواد والنزاع الذى قام من أجل تقسيمه أو عدمه بين عمر بن الخطاب وبعض الصحابة حتى وفق للاستناد إلى نص القرآن فسكتوا ورضوا ، فهى مذكورة فى كتب التفسير والحديث والأموال ، ومنها كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة (ص ٢٨ إلى ٣٢) ، وهو يورد حجة عمر من كتاب الله نصاً ، ويعلق عليها أجل تعليق ، وأحسب يا صديقى أنك منه نقلت ما نقلت ، لتماثل العبارتين ، ولكننى أعجب كيف اقتصرت على الجانب التأريخى من المسألة ، وأهملت الجانب الدينى منها وبه استدلال عمر بالقرآن على صحة ما يذهب إليه من الامتناع من القسمة ، حتى رأيت أنه يصح لك أن تقول : إنه عدل برأيه عن ظاهر النص القرآنى مع أنه إليه استند والصحابة الذين نازعوه لم يسكتوا ورضوا حتى أدلى لهم بحجته الناصعة من كتاب الله ؟

وإليك أسوق حجته التى قالها لمخالفيه كما أوردها أبو يوسف قال : قال عمر رضى الله عنه : إنى قد وجدت حجة ، قال الله تعالى فى كتابه : (وما أفاء الله على رسوله منهم ، فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير) حتى فرغ من شأن بنى النضير . فهذه عامة فى القرى كلها . ثم قال (وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب) ثم قال : (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون) ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم ، فقال : (والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) . فهذا فيما بلغنا والله أعلم للأنصار خاصة ، ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم ، فقال : (والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم) فكانت هذه هى عامة لمن جاء من بعدهم . فقد صار هذا الفىء بين هؤلاء جميعاً ، فكيف نقسمه لهؤلاء ، وندع من تخلف بعدهم بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه .

قال أبو يوسف رحمه الله : والذى رأى عمر رضى الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من افتتحها عند ما عرفه الله ما كان فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ... » .

وفى كتاب (الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام :
قال أبو عبيد : فقد تواترت الآثار فى افتتاح الأرضين عنوة بهذين الحكمين :

أما الأول ، فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيبر ، وذلك أنه جعلها غنيمة ، فخمسها وقسمها ...

وأما الحكم الآخر ، فحكم عمر فى السواد وغيره ، وذلك أنه جعله فيئاً موقوفاً على المسلمين ما تناسلوا ، ولم يخمسه ، ولم يقسمه ...

قال أبو عبيد : وكلا الحكمين فيه قدوة ومتبع من الغنيمة والفىء ، إلا أن الذى أختاره من ذلك أن يكون النظر فيه إلى الإمام كما قال سفيان . وذلك أن الوجهين جميعاً داخلان فيه . وليس فعل النبى صلى الله عليه وسلم براد لفعل عمر ، ولكنه صلى الله عليه وسلم اتبع آية من كتاب الله تبارك وتعالى فعمل بها ، واتبع عمر آية أخرى فعمل بها ، وهما آيتان محكمتان فيما ينال المسلمون من أموال المشركين ، فيصير غنيمة أو فيئاً . قال الله تبارك وتعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) فهذه آية الغنيمة ، وهى لأهلها دون الناس ، وبها عمل النبى صلى الله عليه وسلم .

وقال الله عز وجل : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ...) فهذه آية الفيء، وبها عمل عمر ، وإياها تأول حين ذكر الأموال وأصنافها ، فقال : «فاستوعبت هذه الآية الناس» وإلى هذه الآية ذهب عليّ ومعاذ حين أشارا عليه بما أشارا فيما نرى ، والله أعلم .

وكذلك قال سائر العلماء ، من مفسرين ومحدثين وفقهاء ، ولو ذهبت أروى أقوالهم في التزام عمر النص في هذا الموضوع وسواه وأنه لم يتركه ولم يعدل عنه إلى رأيه أو رأى غيره من الرجال وأن الصحابة كلهم كانوا على هذه الطريقة لم ينزع منهم نازع إلى مذهب التحسين والتقبيح العقليين ، لأمللت السامع وثقلت عليه

وبعد ، أفلا ترى يا سيدي بعد هذا وذاك ، وأنت الملتمس للحق والداعي إليه ، أن تتلافى ما كتبته في هذا الشأن بالتصحيح والتنبيه ، لئلا يتابعه الناس كما تابعه صديقنا الأستاذ عبد المنعم خلاف؟

على أن الذي يعنيني من أمر عمر رضي الله عنه وتصحيح ما ينبغي تصحيحه من الرأي العارض فيه ، ليس بأكبر مما يعنيني من تصحيح جملة القول الذي يتعلق بإباحة ترك النصوص القرآنية لآراء الرجال بدعوى مسوغات المصلحة العامة ، لما يترتب على هذا من تعطيل الشريعة وإبطالها ؛ فأية مصلحة عامة هذه يهتدي إلى تحديدها البشر ذوو المصالح المشتبكة المتعارضة والنوازع الضيقة الحرجة ، ولا يهتدي إليها خالق البشر وهو المنزه عن تلك النقائص ، الذي لا يريد لعباده إلا ما يضمن لهم مصالحهم على خير الوجوه ؟ إن ما استحسنته من ذلك يا سيدي إنما يدخل في باب التحسين والتقبيح العقليين ، وحقيقة ما أردته إنما هو ما يسمى المصلحة المرسلة بلسان الفقهاء والأصوليين ، ولكنه اختلط هذا بذاك وجرى البحث إلى غير وجهته . فيا حبذا لو حررت الموضوع ثانية ، وأقمت حداً فاصلا بين ما يسمى المصلحة المرسلة وهي شرعية ، وبين ما يسمى التحسين والتقبيح العقليين وهو بدعي هادم للشريعة لا يقول به إلا من يريد أن يأتي على الإسلام من قواعده ، وأنت بحمد الله من بُناته وحفظته الأقوياء المخلصين .

هذا وإني مرسل رسالتي إلى معاليك ولك أن تحتفظ بها أو أن تنشرها بنصها وفصها تنبيهاً إلى أمر خطير لا يصح إهماله وإغفاله ، وإني معتقد اعتقاداً جازماً بأن من يكتب مثل (الرسالة الخالدة) ويسمو هذا السمو في الدعوة إلى إقامة نظام عالمي جديد أساسه الدعوة المحمدية في مختلف الشؤون الإنسانية ، لا يعنيه فيما يكتب ويدعو إليه إلا الحق ، ولا يعيش في دنياه إلا لآخرته . بارك الله لك في مساعيك ، ورعاك بعنايته ورضاه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته من أخيك المخلص الأمين :

محمد بهجة الأثري

عزيزي الأستاذ الكبير السيد محمد بهجة الأثري :

السلام عليكم ورحمة الله وبعد . فقد تلقيت كتابكم الكريم ، وأشكر لكم حسن تقديركم « للرسالة الخالدة » وجميل ثنائكم ونقدكم الخالص لوجه الله والإسلام والصداقة ، ذلك النقد الذي أقدره كل التقدير وأعلم ما فيه من غيرة مشكورة على الكتاب والكاتب .

وإني حين ذكرت قصة تصرف عمر رضي الله عنه في أرض السواد تصرفاً جديداً لم يسبق إليه ، لم أرد ما تبادر إلى فهمك من أني ضربته مثلا لترك النص القرآني بناء على مذهب التحسين والتقبيح العقليين وتحكيمه في دين الله ، وإنما أردت أن أعرض مثلا من اجتهاد الإمام في فهم النصوص وعدم وقوفه عند ظاهرها مادام أمامه طرق لفهم جديد معلل بمصلحة عامة فيها نفع محقق للدولة والأمة ، وذلك لأضع أمام الغرباء عن فهم حقيقة الشريعة الإسلامية مثلا من مرونتها واتساع مدى الرأي والتعليل فيها وصلاحيتها أساساً للتشريع في الفرعيات التي تحدث، وتتجدد بتجدد الأزمنة والأقضية وألوان حياة الناس ، حتى لا يستمر انسياق كثير من الناس فيما انساقوا إليه من توهم وقوف الشريعة الإسلامية لا تتكيف ولا تتسع للتطبيق المعقول .

وإن الرواية التي ذكرتها أنا في المسألة نقلا عن كتاب التشريع الإسلامي للمرحوم الشيخ الخضري قد ذكرت الجانب التاريخي والجدل العقلي بين عمر ومخالفيه فيما رأى من تخميس الأموال وتقسيمها بين أهلها وإخراج الخمس وتوجيهه وجهه وحبس الأراضي بعلوجها ووضع الخراج عليهم فيها مع الجزية الشخصية ، ولم تذكر استدلال عمر بالآيات التي تلي آيتي الفيء من سورة الحشر كما روى أبو يوسف في كتاب الخراج وكما ذكرت في كتابك إليّ .

أما وقد روى أبو يوسف اعتماد عمر فيما ذهب إليه على فهم لهذه الآيات فقد صار للمسألة بذلك وجه آخر . ولم يخطر ببالي قط أن عمر رضي الله عنه يرى نصاً قرآنياً لا يقبل التأويل ثم يخالفه ، فعمر هو ما هو صدق إيمان وإذعاناً لأوامر الله . وأخيراً أكرر لك شكري وتقديري مع فائق التحية. المخلص

عبد الرحمن عزام

البريد الأدبي

فقيد العلم والإسلام :

قضى بموت الفجاءة مساء يوم السبت الخامس عشر من هذا الشهر فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر ، فكانت الفجيعة بموته المية قاسية أرمضت النفوس ، وأوجعت القلوب ، وساد الحزن عليه جميع الأوساط والأقطار . فقد كان الفقيد - رحمة الله عليه - مثالا للفكرة المستقيمة ، والحكمة المهذبة ، والإنسانية النبيلة ، وكان كل هذا سجية فى طبعه وغريزة فى نفسه ، فقد نشأ فى بيت عريق الثراء والجاه ، واتصل فى أدوار حياته بمجالى النشاط السياسى والنضال الحزبى ، ولكنه نشأ وعاش على طبيعة الخير وفطرة السماحة ؛ فدرس فى الأزهر جامعة الشعب ، وسافر إلى فرنسا للدراسة ، ثم عاد منها لا ليطلب منصباً يوازى جاهه ومكانته بل ليجلس مجلس الأستاذ يفيد تلاميذه فى الأزهر وفى الجامعة ، وهكذا عاش طول حياته محباً للحكمة ، قريباً من النفوس ؛ ولقد تقلد المناصب الكبيرة . فعين وزيراً للأوقاف ثم شيخاً للأزهر ، ولكنه لم يتغير ولم يتبدل .

لقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق رجلا نبيلا فلاقى ربه بهذه الميتة النبيلة ، ولقد رأى الناس نعشه محمولا على الأعناق ، ورأوا الألوف تحتشد لتشييعه والعزاء فيه ، ولكنهم لم يصدقوا أنه مات ، ولم تستطيع أذهانهم أن تحتمل تلك الصورة الرهيبة ، فيعتقدوا أن الموت طواه كما يطوى سائر الناس ...

لن يموت الشيخ مصطفى عبد الرازق ، ولكنه سيظل صورة شاخصة ومثالا حياً فى أذهان تلامذته ومريديه ، وفى نفوس إخوانه ومحبيه ، وفى قلوب أولئك الذين ملأ قلوبهم بفيض إنسانيته ، وكرم سجيته ، وما أفاء الله عليه من فضل عميم .

لقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق عالماً فاضلا ، وحكيما مهذباً ، وأديباً أريباً ، وكم له من مشابه فى هذا بين الناس ، ولكنه كان إنساناً نبيلا لا يشبهه فى هذا إلا القليل من الناس ، وحسبك برجل لم تحسب له طول حياته فعلة نابية ، أو كلمة شاردة أو إساءة قدمها . بل أضمرها ، ولكنه عاش طول حياته يزرع الخير فى كل مكان . فلا شك أن الفجيعة بموته إنما هى فجيعة لأهل الخير الذين يؤثرونه والذين يطلبونه ...

ونحن اليوم إذ نعزى العالم الإسلامى فى موته ، والعلم فى فقده ، نرجو أن نعود لوفائه حقه من الحديث المستفيض فى شتى نواحى حياته وإنسانيته . أسكنه الله فسيح جناته ، وأسبغ عليه عميم رحماته .

مرحى توفيق الحكيم !

مرحى يا صديق الكاتب الكبير ! وتهنئتى لك على تحرر قلمك الوهوب وخلوصه لأمتك التى تحتاج إلى فنه وقوته فى هذا الدور من تاريخها مسيس الاحتياج - أمتك العربية الكبيرة لا مصر وحدها .

ومن حقك علىّ أن أسجل لك هذا الموقف المشرف فى مقالك « عطور وخمور وفكر » الذى نشرته بالعدد الماضى من « أخبار اليوم » والذى نال من الدعاية الفرنسية ومحاولتها تجديد خديعة مصر عن واجبها إزاء أبناء عمومتها فى شمال إفريقية ، ما لم ينله مقال آخر ، ومن حقك علىّ أن أسجل لك هذا بعد ما أنحيت عليك باللوم مرّ على صفحات هذه المجلة[1] لموقف عكسى سابق بدا لى فيه أنك مخدوع بفرنسا متعصب لها تعصباً قد أنساك بعض المجاملة فى حديث إخوانك . وأنت الرجل المهذب الهادئ ، مما دعانى يومئذ أن أغضى عما لك فى نفسى من مكانة حينما بدا لى أنك تغضى عما ترتكبه فرنسا ضد الحرية وضد حرمات الفكر فى شمال إفريقية ، وأنت يجب ألا يخدع عن ذلك .

والآن أحمد الله إليك على أن سريرتك الطيبة الحرة قد انكشف لها موقف فرنسا على حقيقته ، فأثبت أن الثقافة الفرنسية والدعاية الفرنسية لا تستطيعان أن تخدعا المفكرين العرب بعد اليوم عن واجبهم إزاء ما يرونه من تناقض فاحش بين الفكر الفرنسى الزاعم لنفسه الدفاع عن حريات الإنسان وحقوقه ، وبين السياسة الفرنسية الغاشمة التى تجعل من تونس والجزائر ومراكش سجوناً لأهلها تحرمهم خبز الروح والفكر العربى الذى ينتجه أبناء عمومتهم ، وتحبسهم عن الرحلة فى طلبه ، وتحول بين الناس وبين الرحلة إليهم ليروا آثار الحكم الفرنسى السعيد فيهم .

وأحسب أن بعض أصدقاء فرنسا فى مصر قد فاجأهم وأدهشهم

(١) فى العدد ٦٢٥

موقفك الأخير من فرنسا وأنت ربيبها ، وقد كنت من الأوفياء لها حتى بعد انهيارها وسقوطها بينما انقلب كثيرون ضدها بعد أن كانوا من أبواقها قبل الحرب ولا أزال أذكر كلمتك « فيران السفينة » التى نشرتها فى الاهرام غداة سقوط فرنسا وتخلى بعض تلك الأبواق عنها ودعايتهم ضدها واشمئزازك منهم ذلك الاشمئزاز الذى صورته فى تلك الكلمة ...

أقول أنا أحسب ذلك وأذكر هذا ، ولكن مهما يكن من شىء فإنه لا بد للكاتب الحر أن يفى للحق والحرية ويدافع عنهما فى أى أفق ، ولا يضيره أن يتغير موقفه فى الدفاع ، وإنى أعتقد أن فرنسا تستفيد من موقفك الأخير أضعاف ما تستفيده من موقف الإغضاء عنها أو الخديعة بدعايتها ، لأن ذلك سينبهها إلى أن تترك سياستها التقليدية فى خداع العرب عن طريق مصر ، وإذا كنت قد عشقت روحها الحرة فمن واجبك أن تذكرها بها وتلومها ، وتشتد فى لومها وتغاضبها إذا ما رأيتها ترتد عن رسالة تلك الروح ، وما أظن عشاق فرنسا من المفكرين والكتاب فى الشرق يحبونها لما يرون فيها من البهرج والزينة والمتع الحسية ، وإلا كانوا أحرياء ألا يسموا مفكرين ، وإنما هم طبعاً يحبونها لتقاليد آدابها وما اشتهرت به لديهم من دفاعها عن الحريات . فإذا كشفت لهم الأيام حقيقة خداع فرنسا فى ذلك كله فما أحراهم حينئذ أن يناشدوها أن تحقق ما أحبوها من أجله ، وبخاصة مع قوم تربطهم بهم روابط الدم واللغة والعواطف والآمال والآلام ، فإذا لم تستجب لمناشدتهم فما أحراهم أن يخلعوا من قلوبهم الولاء والحب لها ومن ألسنتهم المجاملة وأن يستقبلوا وافدى الدعاية لها بما هم أهله من الفتور والإهمال .

ذلك هو منطق الذين لا يريدون لأنفسهم التناقض مع أنفسهم ، ولا يريدون أن يبدوا لدى فرنسا مخدوعين ولدى الشرق خادعين أو مخدوعين .

فامض أيها الصديق فى طريق الدفاع عن المغاربة والغضب لهم لا لأنهم من قومك فحسب ؛ بل لأن الحق والحرية ، وهما عماد رسالة الفكر ، تشتد فرنسا فى محاربتهما على مسرح بلادهم . وعسى الله أن ينبه بك أذهان البقية من أصدقاء فرنسا فى مصر إلى واجبهم فى مغالتة فرنسا بالخصومة إذا لم تغير سياستها مع المغاربة تغييراً أساسياً . وإنك لمكسب كسبناه والسلام .

عبد المنعم خلاف

فن وتجارة !

تحت هذا العنوان كتبنا كلمة فى عدد مضى من الرسالة حبذنا فيها ما تقصد إليه شركات الأفلام الأجنبية من عرض أفلام قوية باللغة العربية ، وقلنا إن هذا العمل سيفيد الفن السينمائى فى مصر قوة وجدة نظراً لما تملك هذه الشركات من القوة المادية والقوة الفنية كما عجبنا لتلك الضجة الصاخبة التى يحمل لواءها حضرة يوسف وهبى بك بوصفه نقيباً للممثلين واستنكرنا أن يفزع إلى ولاة الأمور لمنع عرض هذه الأفلام بحجة أنها ستقضى على كثير من الممثلين السينمائيين بالبطالة ، وقلنا إنها حجة تدل على أن هؤلاء السينمائيين إنما يطلبون العيش لا أكثر ولا أقل .

ورد علينا حضرة نقيب الممثلين بكلمة طالعها القراء فى العدد الماضى ، ولقد حاولنا أن نجد فى تلك الكلمة حجة من المنطق بل شبه حجة تقنعنا بأن حضرة النقيب يدافع عن مسألة له فيها رأى وفهم ولكن حضرته كان عند حسن ظننا به وفهمنا فيه ، فقد ترك حضرة يوسف بك المسألة من الناحية الفنية وراح يتهمنا بمناصرة الاستعمار ، وبنصحنا بتقديم ما كتبنا إلى الشركات الأجنبية لتجزل لنا عنه العطاء ..

وإننا لندع هذا الهراء الفارغ ونلتمس للسيد يوسف فى ذلك كل العذر ، فما نحسبه يقدر أن الكلام الذى يكتب غير الكلام الذى يلقيه على خشبة المسرح على رءوس العامة وأشباه العامة ، ندع هذا لنعود فنقول لنقيب الممثلين إنه دل فى كلمته على صدق ما قلناه ، وهو أن حضرات الممثلين السينمائيين إنما يتاجرون بالفن ويدافعون عن حقهم فى العيش ، فقيمة فنهم هى قيمة ما يجلب من الرغيف . ومن العجيب أن السيد يوسف بك يقول إنه لا ينكر عرض الأفلام الأجنبية بلغتها الأصلية ، ولكنه ينكر عملية « الدوبلاج » لما فيها من خطر المنافسة لأفلامه وأفلام شركاته ، ونحن على العكس منه ننكر عرض الأفلام الأجنبية بلغاتها الأصلية ونحبذ تمصيرها ونقلها إلى لغتنا ، ولست أدرى بعد هذا من منا هو الذى يكون داعية للاستعمار الأجنبى .

إن هذا الفزع يا حضرة النقيب ليس له من مبرر إلا الضعف ، وإنكم بإنتاجكم الضعيف الهزيل تحملوننا على أن نحبذ عملية « الدوبلاج » ، فأنتم العلة وعليكم الوزر ، والناس معذورون إذا طلبوا الفن من أى طريق ما دمتم أنتم قد تنكبتم عن الفن كل طريق ..

« الجاحظ »



من الأدب الروسي الحديث :

بعد المعـــــركة

للكاتب الروسي الكسي تولستوي

بقلم الأديب فريد وجدي الطبري

كان صديقي إيجور دريموف شخصاً متزناً يسود عليه الجد . أحب والدته ماريا بوليكا ربوفنا ووالده إيجور إيجورفتش فكان يقول «أبي رجل يحترم نفسه ، وكثيراً ما علمني أن أفتخر بروسيتي» وخطب فتاة في تلك المدينة الصغيرة . وكثيراً ما يتحدث الجنود في الميدان ، وبين فترات القتال عن الزوجات والحبيبات ، يتحدثون في الملاجئ ، وهم في مأمن من البرد القارس ، ومعدهم ملأى ، ونور الشمع يوحي بالحديث . فتسمع كل ناحية من ذلك الموضوع ، مثلا « أساس الحب الاحترام والحب مجرد عادة ، فالإنسان يوزع حبه بين زوجته ووالديه وحيواناته » ويقول آخر « يبدأ الحب عند مايفور دمك ، وشعور المحب كشعور المخمور والجذل المرح » ويستمر الحديث ساعات ، ولا ينتهي إلا بكلمة أو أمر من أحد الضباط .

أما إيجور دريموف فلم يشترك كثيراً في مثل هذه الأحاديث وإذا أشار إلى خطيبته كان ذلك بأسلوب غيرمباشر ، فتراه يقول مثلا « فتاة طيبة تنتظر صديقها حتى ولو جاء على رجل واحدة » ولا ينقاد إلى التحدث عن مغامراته الحربية . وعندما يمتدحه أحد أصدقائه يقول « الأفضل أن لا تتحدث عن هذه الأشياء » وكل ما عرفناه عنه كان من أحاديث زملائه ؛

كنا نتوسل إلى سائقه تشفيلوف ليقص علينا أخباره ، فيصف لنا مثلا كيف كان ينقض على العدو في المصفحة مطلقا عليه ألسنة اللهيب ، فلا يكاد يصل إليه حتى يصرعه . وكم من معركة خاض غمارها وعاد سالما بعد أن يكون فقد عددا من رفاقه وقد أبلى بلاء حسنا دائما وقصص شجاعته عديدة .

وعلى هذه الحال حارب اللازم إيجور دريموف إلى أن أقعده الحظ . كان ذلك في معركة كيرسك بحيث كان النصر في بادئ الأمر للألمان ، واشترك فيها بدبابته ، وما كاد يدخل المعركة حتى قتل اثنان من رجاله . ثم اشتعلت النار في الدبابة . أما السائق « تشفيلوف » فقد تمكن من مغادرة الدبابة المشتعلة ، وسحب اللازم الذي كانت ثيابه تحترق وهو مغمى عليه وأخيراً انفجرت الدبابة وتناثرت قطعا إلى مسافة تزيد على ١٥٠ قدما وأقبل تشفيلوف على اللازم ليطفئ النار المشتعلة في ثيابه وجره إلى مكان أمين . ويقول تشيفيلوف « إنما فعلت ذلك لأني شعرت أن فؤاده مازال ينبض بالحياة » عاش إيجور دريموف حتى ولم يخسر بصره لكن تشوه وجهه جدا حتى أن العظم ظهر في بعض الأماكن ، وبقي في المستشفى ثمانية أشهر ، وأجريت له عدة عمليات متوالية لإعادة أنفه وشفاهه ، وأجفانه وأذنيه . وعندما نزعت عنه الأربطة بعد الشهور الثمانية ، وكانت معالم وجهه قد تغيرت تماما حتى لم يبق فيه شبه للصورة التي كان عليها قبلا . ولما ناولته الممرضة المرآة ليرى وجهه أدارت وجهها بسرعة كي لا يلاحظ الدموع في عينيها من شدة تأثرها بمنظر وجهه . وأعاد إليها المرآة قائلا « كان من الممكن أن تكون المصيبة أكثر مما هي الآن ، على كل حال يكفي أني بقيت حيا » ولم يطلب المرآة مرة أخرى ، بل اكتفى بلمس وجهه الجديد كأنه يعود نفسه أن تألفه . وسرح من الخدمة العسكرية بناء على تقرير طبي . لكنه ذهب إلى قائده ورجاه أن يسمح له بالالتحاق بفرقته ثانية . ودارت هذه المحادثة بينهما .

تصحيح آية :

كتب إلينا كثيرون يصححون كلمة جاءت في المقالة القيمة (محمد والأمن العام) لصاحب العزة علي حلمي بك على أنها آية ، وهي « ولا تكتموا الشهادة وأنتم تعلمون » على أنها ليست بآية ، والآية هي « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » .

« لكنك أصبحت غير قادر على الخدمة » « لا يا سيدي بل لقد أصبحت مخلوقا غريب المنظر ولا أرى كيف يجعلني ذلك غير صالح للقتال » ولاحظ أن القائد كان يتجنب النظر إليه أثناء الحديث ، فابتسم بشفتيه الاصطناعيتين الرقيقتين . أعيد إلحاقه وأعطي أجازة مدتها ثلاثة أسابيع ، فذهب ليقضيها في البيت ، وكان ذلك في الأول من آذار . ولدى وصوله اقترب محطة من قريته ، حدثته نفسه أن يستأجر عربة تقله إلى البيت لكنه عاد فقرر أن يقطع المسافة وهي اثنا عشر ميلا مشيا .

كان الثلج كثيفا والهواء الرطب يهب باردا جداً ، فيتخلل أطراف معطفه محدثا صوتاً كله حنين إلى البيت ، ووصل القرية عند الغروب .

رأى وطنه الصغير بخير والطيور على الأشجار تغرد ؛ أمامه الآن بضعة بيوت ، والبيت السادس يسكنه أبواه . اقترب من البيت ووقف عند الباب لا يجرؤ على الدخول ثم ذهب إلى جانب البيت ونظر في النافذة وكان الثلج يصل إلى ركبتيه . رأى أمه على ضوء المصباح الخافت تعد المائدة للعشاء . وجدت أمه كما يعهدها تماما — طيبة القلب ، هادئة ، وعلى رأسها تلك القبعة الصغيرة نفسها وقد تغيرت عما كانت عليه عند ما رآها آخر مرة ، إذ انحنى ظهرها قليلا . « ليتني كتبت لها قبل مجيء ، ليتني كتبت بضعة أسطر كل يوم » كانت تضع الحليب وقطعاً من الخبز الأسمر والملاعق والملح ، ثم وقفت مكتفة الأيدي وساد عليها التفكير أو الحيرة ؟!

شعر إيجور درعوف وهو يراقب والدته من النافذة أنه لا يستطيع أن يوجه إليها هذه الصدمة إذا عرفت أن هذا المخلوق المشوه هو ابنها ! ووطد العزم على ألا يعرفها بنفسه ، وقرع الباب . سألت الوالدة « من بالباب » ؟ فأجاب « أنا الملازم جربنوف أحد أبطال الاتحاد السوفيتي » . ووجد أن خفقات قلبه قلت وزال عنه القلق عند ما رأى أن والدته لم تميز صوته . حتى هو نفسه أخذ يلاحظ أن صوته قد تغير بعد تلك العمليات ومن جراء الأهوال ، فقد أصبح صوته خشناً وحاداً . وقالت الأم « ماذا جرى؟ » فيجيب « أحمل رسالة إلى ماريا بوليكا دبوفنا من ابنها الملازم الأول درعوف » ولما سمعت ذلك ضمته بإحدى يديها وصافحته بالأخرى بحرارة قائلة « إذا ولدي ايجور مازال حياً ؟ تفضل ادخل وحدثني عنه » جلس إيجور درعوف إلى المائدة حيث كان يجلس وهو صغير يوم كانت رجلاه لا تصلان الأرض وأمه تخاطبه — « قل يا أعز الناس لدي » — أخذ يحدثها عن ولدها أنه بخير وصحته جيدة وأنه سعيد . لكنه لم يذكر لها للمعارك التي خاض غمارها بدبابته . وتقاطعه قائلة — « قل لي الحياة في الجبهة فظيعة رهيبة ، أليس كذلك ؟ » . « نعم أيتها الوالدة ، إن الحرب كلها فظائع وويلات ، ولكن الإنسان يألفها مع الأيام » .

بعد قليل جاء والده وقد بدا أكبر مما كان وذقنه بيضاء وكأنما اعتراها غبار أو طحين مسح الثلج عن رجليه وخلع معطفه المصنوع من الفراء وصافح الضيف . في هاتين اليدين الكبيرتين يلمس الإنسان الأبوة اللطيفة ! وإيجور درعوف يعرف هاتين اليدين فطالما لمسهما ! جلس والده ليستمع إلى ذلك الجندي الذي غطى صدره بالأوسمة دون أن يسأله أي سؤال . وكلما طال الوقت على درعوف وأهله لم يميزوه كلما ضاق صدره ويهم أن يقول « ميزوني تعرفوا إلي ، بعد أن أصبحت إنسانا غريب المنظر » ، لكنه يتراجع .

مما يبعث السرور في نفسه ، أنه يجلس على مائدة أبيه غير أنه في نفس الوقت كان كمن خاب أمله والآن حان وقت الطعام ، فهل لديك ما نقدمه لضيفنا أيتها الأم ؟ » قال الأب هذا ، وفتح جارورا في طرف الطاولة لا تزال فيه سنارات لصيد السمك في علبة كبريت فارغة تخص ولده . وفاحت رائحة مألوفة ، هي رائحة البصل والخبز . وأخرج زجاجة خمر صغيرة بقي فيها ما يملأ قدحين صغيرين فقط . وبينما كانوا يأكلون ، لاحظ درعوف أن أمه تحاول أن ترى كيف يمسك الملعقة ولما التقى نظرها غضت طرفها وعلى وجهها مسحة من الحزن والشفقة ، فابتسم . طرقوا مواضيع عديدة . المزروعات والحاصلات ، الأمل بانتهاء الحرب في الصيف « ولماذا تعتقد يا سيد إيجورفتش بأن الحرب قد تنتهي في هذا الصيف ؟ » .

فأجاب الأب « الشعب هائج ، بعد هذه المصائب التي سببها لهم الألمان ، لن يقف في وجههم شيء » ، وهنا قالت ماريا « لم تخبرنا متى يأتي ولدنا في أجازة بعد أن مضى ثلاث سنوات على غيابه عنا ؟ ربما تغير شكله كثيراً الآن وربما كان له شاربان ويعيش

كهؤلاء الذين يقطنون فى جوار الموت . قد يكون صوته تغير؟»

« ربما لا تعرفينه متى عاد »

وضعوا له فراشاً فى إحدى زوايا الغرفة ، قريبا من الوقدة ؛ فى تلك البقعة التى يعرف كل حجر فيها وكل ثقب وعقدة فى السقف ، ورائحة الخبز ، ورائحة البيت ، الرائحة التى لا ينساها الإنسان حتى ساعة الموت . وهبت رياح شديدة فى الخارج . وكان يسمع شخير والده من وراء الحاجز وكان سهلا عليه أن يتصور أمه مسهدة تصعد الزفرات واللازم مضطجعاً على جانبه ورأسه على يده وقد أخذ يقول فى نفسه : أحقا يا أماه لا تستطيعين أن تعرفينى ؟ واستيقظ فى الصباح على صوت طقطقة الحطب وهو يحترق فى الوقدة ، ورأى أمه منهمكة فى عملها قرب النار وجوربيه قد غسلا وعلقا على الحبل وحذاءه نظف ومسح ؛ وسألته والدته إذا كان يحب الجبنة مع البسكوت . وبعد أن جلس إلى المائدة قال «طلب إلى دريعوف أن أبلغ سلامه إلى كانيا ابنة أندرى سيفانوفتش، فهل لا تزال تسكن قريبا منكم؟»

«نعم وقد أنهت المدرسة فى العام الماضى وهى تعلم الآن . سأدعوها لك» ثم خرجت تدعو كانيا مانيشنا، وما كاد اللازم يلبس حذاءه حتى جاءت كانيا تركض ووقفت أمامه ، وها هى عيونها الواسعة اللامعة وحاجباها وقد ارتفعا فى دهشة واستغراب ، وزاد احمرار خدودها المتوردة عند ما ألقت بالشال الصوف الذى كان فى يدها . وتمنى لو يقبل هذه الشفاه اللطيفة . بدت أمامه كما كان يتصورها : عروس المستقبل ، نضرة مرحة ، ناعمة ، تكسوها العافية وقد أضاءت الغرفة عند ما دخلت .

« هل جئتنى بأخبار من إيجور ؟ قل له إنى أنتظره فى الليل والنهار» . أدار وجهه من النور ليراها بوضوح ؛ اقتربت منه لكنها همت بالتراجع عند ما رأت ملامحه . وأراد أن يكشف عن نفسه فى ذلك اليوم وفى تلك اللحظة ولكن لم يفعل : وطلبت إليه أمه أن يجلس ويأكل الكعك مع الحليب .

وتكلم إيجور دريعوف ولم يعلق على اشتراكه فى القتال وتجنب أن ينظر إلى كانيا كيلا ترى انعكاس بشاعته فى عينيها . واقترح أبوه أن يأتيه بحصان يركبه لكنه فضل أن يعود مشيا كما جاء .

لقد تأثر جداً من تلك الزيارة ، وكان فى الطريق يتحسس وجهه ولا يدرى ماذا يفعل بنفسه !

ولما عاد إلى المعسكر اهتم به أصدقاؤه كثيراً وصار يأكل ويشرب ويضحك مثلهم بنشاط وسرور وكأن لم يحدث له شىء . قرر أن يخفى الحقيقة عن أمه . أما ذكريات كانيا فرأى أن يخرجها من مخيلته لكن تسبب ألما ويجب خلعها .

وبعد أسبوعين تسلم رسالة من أمه :

«تحيات ياحبيبى . ترددت قبل لأنى لم أعد أعرف بماذا أفكر؟ جاءنا شخص من طرفك — شاب لطيف جداً لكن وجهه مخيف . وكأنه كان يرغب أن يمكث قليلا لكنه عدل عن ذلك فجأة . ومنذ تلك اللحظة لم أنم ويبدو لى أن ذلك الشاب هو أنت . أما والدك فيقول بأنى مجنونة . وربما أنا مجنونة إذ لو كان ذلك الشاب ولدنا لقال ذلك ، ولماذا يخفى ذلك عنا ؟ كان له وجه يفتخر به ! ويحاول والدك أن يقنعنى لكن قلب الأم يقول لى ، إنه ولدك ! اكتب لى يا حبيبى إيجور بالله عليك أشفق على وأخبرنى هل كان ذلك صحيحاً أم أنا مجنونة ؟

وأطلعنى صديقى دريعوف على هذه الرسالة كصديق ولما قص على القصة كانت الدموع تملأ عينيه فيجففها بمنديله . لقد ارتكبت خطأً جسيما أيها الغاشم ، اكتب لأمك حالا وأطلعها على الحقيقة واطلب الصفح منها . سيزداد حبها لك وأنت فى هذه الحال وفى اليوم نفسه كتب لأبويه :

« والدىّ العزيزين ، لقد كان ذلك الشاب ولدكم ، أنا ... »

وراح يملأ أربعة صفحات من الحجم الكبير وبخط صغير ، فكتب رسالة تشغل عشرين صفحة من الحجم العادى .

وبعد أيام كنا نتدرب فى الميدان عند ما جاء أحد الجنود إلى إيجور وخاطبه قائلا : يا عزيزى الكابتن يدعوك . وتبعته إلى الثكنة التى يسكنها معا ، وهناك سمعته يقول «مرحبا يا أبى هأنذا» ورأيت سيدة عجوزا قصيرة ضئيلة الحجم تعانقه ، وكان هناك امرأة أخرى — لم أر مثل ذلك الجمال حياً يتنفس طيلة حياتى ! ! رفع والدته عن صدره وخاطب الفتاة . « لماذا أتيت يا كانيا ؟ لقد وعدت ذلك الشاب الذى كنت تمهدينه بأن تنتظريه وليس أنا الذى لم تستطيعى ... » لكنها قاطعته : « إيجور قررت أن أقضى العمر معك ، فلا تبعدنى عنك من الآن » .

(القدس) فريد وجدى الطبرى